الباب الأول

« مع الشعر الجاهلى »

القصيدة الأولى

« عبيد بن الأبرص »

« بين أمس دابر وحاضر مقيم »

١ – ليس رسم على الدفين يبالى　　فلوى ذروة فجنبى أُثال
٢ – فالمَرّ وراهُ فالصفيحة قفرٌ　　كل واد وروضة محلال
٣ – دار حى أصابهم سالف الدهـ　　ـر فأضحت ديارهم كالخلال
٤ – مقفرات إلا رمادا غبيا　　وبقايا من دمنة الأطلال
٥ – وأوارى قد عفون ونؤيا　　ورسوما عرين مذ أحوال
٦ – بدلت منهم الديار نعاما　　خاضبات يزجين خيط الرئال
٧ – وظباء كأنهن أباريـ　　ـق لجين تحنو على الأطفال

• •

تحليل المفردات

١ – الرسم : ما شخص من آثار الديار ، الدفين : واد قريب من مكة ، واللوى : جانبا الرملة ، كل جانب منها لوى ، يقول شاعرهم :

أمرتهم أمرى بتقطع اللوى　　ولا أمر للمعصى إلا مضيع (١)

وفى معجم ياقوت : اللوى : منقطع الرملة ، وهو أيضاً موقع بعينه قد أكثرت الشعراء من ذكره ، وهو واد من أودية بنى سليم ، قال « امرؤ القيس » :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل　　بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وذروة : من بلاد غطفان ، أو هو واد لبنى فزارة ، أو هى جبال متصلة ببعض جبال تهامة .

وأثال : كغراب : جبل وماء لعبس وحصن لهم ، أو موضع على طريق الحاج بين الغمير وبستان ابن عامر .

---

(١) كتاب الجيم لأبى عمرو الشيبانى ٣/٢٢٤ .

٢ ــ المروراة: الأرض لاشيء فيها، جمعها: مرورى، ومرورويات، أو هو جبل لأشجع ، أو موضع انتصرت فيه ذبيان على بنى عامر ، وفيه يقول « زهير » :

تربص فإن تقو المروراة منهم ... وداراتها لا تقو منهم إذاً نخل
فإن تقويا منهم فإن محجرا ... وجزع الحسا منهم اذاً قلما يخلو
بلاد بها نادمتهم وعرفتهم ... فإن أوحشت منهم فإنهم بسل(١)

والصفيحة : فى بلاد بنى أسد وروضة: جنة، محلال: أى تحل كثيراً والمعنى فيها قائم على ما يريدونه من (الحلال) الذى هو البيت وأدواته ، ومنه قول الشاعر :

نواج يتخذن الليل خدرا ... ولا يعدلن من ميل حلالا(٢)

٣ ــ الخلال : جمع خلة بكسر أوله وتشديد اللام ، وهى بطانة تنقش بالذهب يغشى بها جفن السيف ،والسير يكون فى ظهر سية القوس ، وكل جلدة منقوشة ، ويقال إنها الخالة اللحم أى قليلة اللحم وإن كانت سمينة بينة الحلول ، وقريب منه التخليل : أن تتبع القثاء والبطيخ فتنظر كل شيء منه لم يثبت .

٤ ــ غبياً : خفيا . والتغبية: الستر كما جاء فى القاموس(٣). . ويروى: عفيا، والدمنة : آثار الديار والناس وما سودوا، دمنه: دمنت الماشية المكان إذا باتت فيه وتركت بعدها :

٥ ــ الأوارى ، مفرده آرى ، قالوا : أريت للجمل وللفرس إذا حفرت حفرة فدفنت عودا فيه رسن ، ثم دفنته وأخرجت عروة الرسن فربطت به ، فالآرى على هذا محبس الدواب ، وعفون: درسن، والنؤى، والنثى ، والنؤى كهوى : الحفير حول الخباء أو الخيمة يمنع السيل .

(١) شرح ديوان (زهير بن أبى سلمى) ١٠٠
(٢) كتاب الجيم ١٦٤/١ .
(٣) القاموس المحيط للفيروزبادى.

٦ ــ خاضبات : محتضرة السيقان من أكلها البقل فى الربيع ، ويزجين : يسقن ، والخيط : الجماعة من النعام والجواد ، والمراد الأول ، والرئال : واحدة : رأل : فرخ النعام أو حوليه .

٧ ــ اللجين : الفضة ، يقول « النابغة الجعدى » :

نحلى بأرطال اللجين سيوفنا وتعلو بها يوم الهياج السنورا(١)]

* * *

الأبيات السابقة من النص مرآة تلوح على صفحتها أطلال دوارس ، ودمن شاحبة باهتة هى أثر من مكان ارتبط الشاعر به ، ولأن « عبيدا » ما يزال يهفو إلى هذا المكان ، ويحن إليه حنيناً لهيفا راح يثبت أن المكان على الرغم من أله أصبح أثراً بعد عين ، حيث لا حركة ولا نأمة ، ما فتئت الحياة تشهد على وجوده ، ولئن صار هاجعا ، يلفه الصمت الرهيب ، وينعب فيه غراب البين إن له لسراً عجيباً ، يهز كيانه ، فيعيش الذكريات : عذبها وعذاباتها .

نعم ، لقد غدا المكان موحشا لا أنيس فيه ، فأين تلك الأودية التى كانت تغشاها السابلة والرياض التى كانت ملتقى الأحباب ، فينفسه معاهد الصبا التى بطشت بها الأيام الحوالى والدهر الغادر ، فأطاحت بالمعالم وتبدد الرواء لولا بقية متناثرة منه ، تبدو فى هيكل تداعى أو رسم تتربص به نوب الدهر وأغياره ، أو حفر تشهد بما لهذه المواضع من أمارات صادقة على الحركة الحياشة التى كانت تدب فى تلك البلاقع . ولكم يأسى الناظر لما يشكل ملامح الوجود فى هذا المكان من ديار استبد بها التغيير ، وعدت عليها الأيام حتى غدت مرتعا لنعام يسوق أفراخه ، وظباء مطت أعناقها نحو أطفالها تعبيرا عن الحنو عليها والشفقة على الأطفال والرحمة بها .

---

(١) كتاب الجيم ٣/٢١٨ .

٨ ــ تلك عرسى غضبى تريد زيالى ألبين تريد أم لدلال !!
٩ ــ إن يكن طبك الفراق فلا أحــــفل أن تعطفى صدور الجمال
١٠ــ أو يكن طبك الدلال فلو فى سالف الدهر والليالى الخوالى
١١ــ ذاك إذ أنت كالمهاة وإذ آ تيك نشوانٌ مرخيا أذيالى
١٢ــ فدعى مط حاجبيك وعيشى معنا بالرجــاء والتأمال
١٣ــ زعمت أننى كــبرت وأنى قل مالى ، وضن عنى الموالى
١٤ــ وصحا باطلى وأصبحت شيخا لا يواتى أمثالهــا أمثالى
١٥ــ أن رأتنى تغير اللون منى وعلا الشيب مفرقى وقذالى

• • •

٨ ــ العرس : الزوجة ، والزيال : المفارقة ، ومنه وردت الآية الكريمة «ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا : مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم »(١) .

والبين : الفراق ، يقول « كعب بن زهير » فى مطلع قصيدته الذائعة :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

والدلال والدل : تدلل المرأة على زوجها ، جرأة عليه كأنها تخالفه وما بها خلاف .

ورواية الأغانى » :

تلك عرسى غضبى قد عيرتنى خلالى ... إلخ .

٩ ــ الطب بالكسر : الإرادة والشأن والعادة ، ولاأحفل : لا أبالى وفى البيت رواية أخرى (أن تعطفى صدور الجمال) .

(١) سورة يونس آية ٢٨

١٠ ــ الخوالى : جمع خالية (أى ماضية) ، وفى الكتاب العزيز من سورة « البقرة » : « تلك أمة قدخلت »(١) .

والمراد فلو حدث ذلك قبل أن يزحف المشيب على رءوسنا لتجلدنا .

١١ ــ المهاة : البقرة الوحشية ، والنشوان : السكران .

١٢ ــ ودعى : اتركى ، مط الحاجبين : مدهما ، أمارة التعجب منه ، أو النظر إليه شزراً ، والتأمال : الأمل المرجو .

١٣ ــ حنن : بخل ، والموالى جمع مولى : وهو الصاحب والقريب والجار والحليف ولعل الذى يقصده (عبيد) .

ضن على هؤلاء بالمشاركة الوجدانية فى مواساتى .

١٤ ــ وصحا باطلى : يريد : وخط شعر رأسى الشيب ، والشيخ : من تجاوز الخمسين تقريباً ، قال الشاعر(٢) .

زعمتنى شيخاً ولست بشيخ إنما الشيخ من يدب دبيبا

ولا يواتى : أى لا يوافق .

١٥ ــ المفرق : موضع افتراق الشعر ، والقذالة(٣) ، رأس كل شىء كقذالة الجبل والبيت وغيره ، والقذال مثله ، يقول « زهير » .

وملجمنا ما إن ينال قذاله ولا قدماه الأرض إلا أناملة(٤)

والمقصود بالقذال فى البيت : مابين الأذنين من مؤخر الرأس (جماع مؤخر الرأس) .

* * *

ويلمس « عبيد » فى أسى بالغ موقف زوجه منه بعد أن زايلت

---

(١) الآية (١٣٤).

(٢) ينسب هذا البيت لأبى أمية الحنفى ، واسمه (أوس) ، انظر الأشمونى ٢/٥٢ .

(٣) أساس البلاغة للزمخشرى (مادة) « قذل »

(٤) شرح ديوان (زهير) ١٣٣ .

صورة الشباب ، وعلاه الشيب ، فقد صدت عنه ولم تعد متحببة إليه على العهد بها بل نفرت منه ، تريد أن تدعه شيخاً هما ، وكأنما أراد « عبيد » أن يسجل على المرأة بعامة فى صورة زوجه ماسجله غيره من الشعراء على « حواء » من مثل قول « علقمة بن عبدة » :

فإن تسألونى بالنساء فإننى بصير بأدواء النساء طبيب
إذاشاب رأس المرء أوقل ماله فليس له من ود هن نصيب
يردن ثراء المال حيث علمنه وشرخ الشباب عندهن عجيب(١)

ولهذا فلا ضير عليها إن هى أزمعت الفراق وأصرت عليه ، وهل فى وسع إنسان أن يغير خلائق المرأة التى فطرت عليها .

وإذا كانت إنما تقصد بالعزوف عنه أن تدل عليه فغير بعيدة النظر ، ذلك لأن مرحلة « الدلال » تقضت وفات أوانها ، حيث استمتع فيها الشاعر بالغواية وملأ كأسه منها .

إن الشباب الذى مجد عواقبه فيه نلذ ولا لذات للشيب(٢)

وهذا الشيب يتقاضى من الإنسان سكينة ووقارا ، الأمر الذى يدعو زوجه إلى أن تستسلم لواقع الحال ، وتركن إلى الدعة والهدوء فذلك خير من التمرد والصد والمبالغة فى الهجران .

على أن هذا التحول منها لايملك الإنسان لأسبابه حيلة ، ولايستطيع لها دفعاً فالكبر أو الشيخوخة سلسلة طبيعية فى العمر ، والمال الذى تدفق بين يديها إذا كان قد قل فذلك أن المال يميل عن هذا تارة ليتحول إلى سواه تارة أخرى ، وهكذا . وأما الأصدقاء والنصراء والأعوان فانفضاضهم عنه لايعيبه بل هو دليل يصم هذه العلاقة .

ولا خير فى ود امرىء متلون إذا الريح مالت مال حيث تميل

---

(١) ديوان علقمة الفحل ص ٣٥ وما يليها » .

(٢) البيت من شعر سلامة بن جندل السعدى من قصيدة رائعة استهلها بقوله :

أودى الشباب حميدا ذو التعاجيب أودى ، وذلك شأو غير مطلوب

فلو أن ثمة من الأسباب ما يدفعها إلى ذلك الموقف لكان لها مندوحة، أما وهذا هو الواقع فحرى أن تعيد النظر إلى ما عسى أن يكون وراء التحول الذى تتصف به .

١٦ – فارفضى العاذلين واقنى حياء ... لا يكونوا عليك خط مثال
١٧ – وبحظ مما نعيش فلا تذ ... هب بك الترهات فى الأهوال
١٨ – منهم ممسك ، ومنهم عديم ... وبخيل عليك فى بخال

---

١٦ – العاذلين : اللائمين ، واقنى حياء : الزمى الحياء ، يقول عنترة :

بكرت تخوفنى الحتوف كأننى ... أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتها : إن المنية منهل ... لا بد أن أسقى بذاك المنهل
فاقنى حياءك لا أبالك واعلمى ... أنى امرؤ سأموت إن لم أقتل(١)

والمراد من : لا يكونوا عليك خط مثال : « انبذى ما يمثلون لك من الفراق والقطيعة » .

١٧ – الترهات : جمع ترهة على مثال (قبرة) ، والمقصود منها : الأقاويل الخالية من الطائل .

١٨ – الممسك : البخيل ، والعديم الفقر .

* * *

والأبيات الثلاثة توجيه من زوج يرجو لامرأته أن تطرح كل ما يقوله المغرضون الذين يودون بجدع الأنوف أن تهب الأنواء العاتية التى يثيرونها أملا فى تقويض الحياة الزوجية المستقرة ، ولعلها أن تتصاع لهذه النصيحة ، وتعتصم منهم بالحياء حتى تلجم ألسنتهم عن قالة السوء ، وعليها

---

(١) الشعر والشعراء ١ – ٢٥٤ ، وانظر ديوان « عنترة » بتغيير فى البيت الثانى : لا بد أن أسقى بكأس المنهل

أن تقنع بحظها من الحياة ، فالسعيد السعيد من استشعر الهناءة فى الحياة الزوجية ، ورضى بما قدر له منها ، ولاسيما إذا عاش ظروفاً فيها من الشظف والحرمان ما لا حيلة له فيه ، وكأنى بالشاعر يلهج :

عيرتنى الشيب وهو وقار ليتها عيرت بما هو عار(١)

ويعنى فى تأكيد المعنى ، فيقول :

لعمرك ليس المال من حيلة الفتى ولكن أحاظ قسمت وجدود

وإذا كان الأمر كذلك فلا ينبغى أن تذهب نفسها حسرات ، أو تنال منها الأراجيف منالا ، لأن العاذلين ليسوا على خلق كريم ، فيستمع الأكياس إلى ما يصدر عنهم ، بل هم أخلاط من الأغنياء والفقراء ، هؤلاء يضنون على المروءة بأموالهم ، وأولئك ينفسون على الشاعر ، ففيم الجفوة وعلام القطيعة ، والموقف عار والدوافع الكامنة مأنوسة ملموسة !!

١٩ — واتركي صرمة على آل زيد بالقطيبات كن أوأ ورال

٢٠ — لم تكن غزوة الجياد ولم ينـــقب بآثارها صدور النعال

٢١ — دردر الشباب والشعر الأسود والراتكات تحت الرحال

٢٢ — والعناجيج كالقداح من الشو حط يحملن شكة الأبطال

٢٣ — ولقد أذعر السروب بطرف مثل شاة الإران غير مذال

٢٤ — غير أفنى ولا أصك ولكن مرجم ذو كريهة ونفال

٢٥ — يسبق الألف بالمدجج ذو القونس حتى يثوب كالتمثال

٢٦ — فهو كالمنزع المريش من الشو حط مالت به شمال المغالى

٢٧ — يعفر الظبي والظليم ويلوى بلبون المعزابة المعزال

٢٨ — ولقد أدخل الخباء على مهضومة الكشح طفلة كالغزال

٢٩ — فتعاطيت جيدها ثم مالت ميلان الكثيب بين الرمال

٣٠ — ثم قالت : فدى لنفسك نفسى وفداء لمال أهلك مالى

---

(١) فى نسبة هذا البيت إلى قائله اضطراب : فمرة ينسبونه للمستنجد بالله أبى المظفر ت ٥٦٦ هـ كما فى تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٧٠٤ ، ومرة يعزونه إلى أبى عبد الله الزمجفرى ، كما هو وارد فى تاريخ بغداد ٢/٣٣٨ .

١٩ ـ الصرمة : القطعة من الإبل ما بين العشرين إلى الثلاثين أو إلى الخمسين وقيل غير ذلك ، والقطيبات ، والأورال : موضعان

٢٠ ـ لم تكن غزوة الجياد : يعنى ليست هذه الصرمة عن غزوة الجياد وإنما هى تركة رجال ، ويتقب : يثقب ، والنعال جمع نعل : وهى الأرض الغليظة يبرق حصاها ولا تنبت ، أو حديدة فى أسفل غمد السيف .

• • •

ثم كيف يغيب عن الوعى فى غمرة الغضب والقطيعة أن هناك سبباً تفجر منه هذا الموقف ، وجرف الزوجة فى تياره وهل غاب عنها ما فعلت «بنو زيد» حين عدت على قطيع من الإبل فأخذته ، لا لأنهم أهل جهاد و جلاد حتى يعد ذلك فيئا ، لكن هذا القطيع وقع لهم بدون حرب أو ضرب حين واتاهم الحظ فكان منهم ما كان ، لقد اهتبلوا الفرصة ـ وهم أخبر الناس بموقفهم من الحرب ولظاها اتقاء لها أو فرقاً منها ، بدليل أنهم لم يكابدوا صنوف اللأواء فى الحركة عن مواطنهم ولم يستلوا سيوفهم من أغمادها فبقيت دون ما إعمال لها ، حتى أصبحت كالمفلولة ، ذاك سبب يقف وراء مظاهر الجفوة والفتور .

• • •

٢١ ـ در در الشباب : كثر خيره ، وهو أسلوب إنشائى يموج بمشاعر الحنين إلى الشباب ، والراتكات من الرتك وهو الإسراع ، والراتكات : الإبل النجائب السريعة ، ومما يقوله « زهير بن أبى سلمى » فى هذا المعنى :

هل تلحقنى وأصحابى بهم قلص يزجى أوائلها التبغيل والرتك(١)

والرحال جمع رحل : مركب يعد للبعير من حلس ورسن وغيرهما .

---

(١) شرح ديوان زهير بن أبى سلمى ١٦٨ .

٢٢ – العناجيج : جمع عنجوج ، جواد ، الخيل السراع ، والقداح : السهام ، والشوحط : نوع من الشجر يتخذ منه السهام والقسى ، ومن شعر وابن مقبل في إحدى قصائده في القداح :

عانى شوحط صم مقاطعهـــا مكسوة من خيار الوشى تلوينا
عارضتهم بعنود غير معتـلث ترن منه متون حين يجرينـــا (١)

والشكـــة : السـلاح .

٢٣ – السروب : جمع سرب : القطيع من الخيل والظباء والنساء والأول هو المراد ، والطرف : الفرس الكريم الطرفين (الأب والأم) وشاة : التيس ، والإران : الخفة والنشاط ، وشاة الإران : الثور الوحشى الخفيف النشط ، والمذال : الذليل المهان .

٢٤ – الأقنى : الأحدب الأنف ، والأصك : الذى تصطك ركبتاه ، وكلاهما مما يعيب الخيل ، والمرجم : يقـال فرس مرجم : يرجم الأرض بحوافره لفرط عدوه ، وذو كربهة : ذو جلد على الشدة والعدو ، والنقال : المناقلة : سرعة نقل القوائم فى السير .

٢٥ – المدجج : الفارس ، والقونس : الخوذة فى رأسها حديدة طويلة يقول حسان بن ثابت :

ألاهل أتى غسان عنا ودونهـــم من الأرض خرق سيره متتعتع
مجالدنا عن جذمنا كل فخمة مدربة فيها القوانس تلمع (٢)

يثوب . يرجع ، كالتمثال (فى الحسن ، لاتبدو عليه أمارات الإعياء)

---

(١) الميسر والقداح ٨٢ لابن قتيبة ، تصحيح وتعليق السيد محب الدين الخطيب .
(٢) سيرة ابن هشام ٣ / ٦٦ تقديم وتعليق طه عبد الرءوف سعد

٢٦ ــ المنزع : الذى ينتزع به ، والمريش : الذى عليه الريش ، والمغالى : من يرفع يديه بالسهم إلى أقصى غاية ، والتغلية : أن تسلم من بعيد وتسير ، قال مدرك .

فتغدو تغلى بالسلام كأنهـــا عقيلة يسر لم تدنس ثيابهـا(١)

ويروى ، يمين المغالى ولعل هذه الرواية أوفق .

٢٧ ــ يعفر الظبى ، يلقيه فى العفر وهو التراب ، والرواية الأخرى يعقر أى يجرح ، يقول الله تعالى عن أصحاب صالح ،

« فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين » (٢) .

والظالم ، ذكر النعام ، أو ولده ، والتراب المستخرج من الحفرة ، وعلى المعنى الثانى جاء قول « مغلس » :

فصبح فى غبراء بعد إشاحـــة على العيش ، مردود عليه ظليمها

والأول هو المعنى هنا ، واللبون ، الشاة ذات اللبن ، والمعزابة والمعزال ، وهو الرجل يعزب بإبله عن الناس ويعتزلهم خوف الغارة ، أو الذى لاسلاح معه ، أو الذى لايحسن ركوب الخيل .

٢٨ ــ الخباء : الخيمة ، المهضومة الكشح : ضامرة الخصر ، والطفلة : الرخصة الناعمة ، وفى الديوان يتقدم هذا البيت ، قيل قوله :

أن رأتنى تغير اللون مـــنى وعلا الشيب مفرقى وقذالـــى

ولعل الترتيب على هذه الشاكلة يتناغم مع المعانى التى خالجت الشاعر

---

(١) كتاب الجيم ٢٠١٣ .

(٢) الأعراف (آية ٧٧) .

وهو يمضغ ذكريات شبابه ، على أن هذا البيت يبدو معطوفاً على ما سبقه من أبيات :

ولقد أذعر السروب بطـــرف مثل شاة الإران غير مـــذال

ثم يأتي البيت الثالث والثلاثون ، ترجيحاً على أن ترتيب القصيدة على هذا النحو يأخذ بعضه بحجز بعض .

٢٩ ـ فتعاطيت : تناولت ، جيدها : عنقها ، والكثيب : التل من الرمل جمعه أكثبة ، وكثب وكثبان .

٣٠ ـ فداه يفديه فداء ، وفدى ويفتح ، وافتدى به ، وفاداه : أعطى شيئاً فأنقذه ، والفدى والفداء : ذلك المعطى .

* * *

٣١ ـ ولقد أقدم الخميس على الجر داء ذات الجراء والتنقـــال
٣٢ ـ فتقيني بنحرها وأقيها بقضيب من القنا غير بالـــى

* *

٣٣ ـ ولقد أقطع السباسب والشهـــب على الصيعرية الشمـــلال
٣٤ ـ عنتريس كأنها ذو وشـــوم أحرجته بالجو إحدى الليـــالى
٣٥ ـ ثم أبرى نحاضها فتراهـــا ضامرا بعد بدنها كالهـــلال
٣٦ ـ ذاك عيش رضيته وتولى كل عيش مصيره لهـــبال

* * *

٣١ ـ أقدم : أتقدم وأتصدر ، وفى القرآن الكريم من سورة « هود » عليه السلام يقدم قومه يوم القيامة ، فأوردهم النار ، وبئس الورد المورود»(١) .

والخميس : الجيش لأنه خمس فرق : المقدمة والقلب :

---

(١) الآية (٩٨) .

والميمنة والميسرة ،والساقة ،والجرداء : الفرس القصيرةالشعر ، والجراء : الجرى الكثير ، والنقال : المناقلة وبرى والتبغال . وقد المحنا إلى معناه سلفا .

٣٢ – القنا : الرماح وغيربال : أى صلب .

٣٣ – السباسب: جمع سبسب: الأرض المستوية البعيدة لاشىء فيها أو هى المفازة ، والشهب : جمع شهباء : الفلاة . ومن ثم قالوا : سنة شهباء يريدون لاخضرة فيها ولا مطر ، والصيعرية : ضرب من الإبل النجائب لها سمة فى أعناقها ، وقيل الصيعرية صفة للإناث منها خاصة ، ومن أجل ذلك كان قول « طرفة » ونقدته الذائعة لبيت « المتلمس » .

وقد أناسى الهم عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكدم (١)

والشملال : الخفيفة السريعة

٣٤ – العنتريس : الصعبة ،والموشم : ذو الوشوم الذى فى أوظفته خطوط سود وبيض يريد : الثور الوحشى ، أحرجته : حبسته ، أوحملته على اللجأ إلى شجرة بالحو ، وإحدى الليالى : أى الباردة .

٣٥ – النحض : الكثير اللحم ، والنحاض : اللحم ، والبدن: السن ، وفى قوله تعالى فى سورة « الحج » .

« والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير(٢) » ما يشير إلى أن الأضحى فى الحج ينبغى أن تتصف بالسمن حتى تقع عند الله موقعا مقبولا وتشبيهها بالهلال لما آل إليه أمرها من انحناء وضمور .

٣٦* – توفى تقضى وذهب ، والهبال : الهلاك ، ومنه قول الشاعر .

والناس من ينق خيرا قائلون له مايشتهى ، ولأم المخطىء الهبل

(١) نظر الشعر والشعراء ١/١٨٣

(٢) الآية (٣٦)

* البيت للقطامى .

وزاد « لويس شيخو » الأبيات الثلاثة الآتية (١) ، قبل البيت الثالث :

(أ) صبر النفس عند كل ملم إن فى الصبر حيلة المحتال
(ب) لاتضيقن فى الأمور فقد تكشف غماؤها بغيرا حتيال
(ج) ربما تجزع النفوس من الأمـــر له فرجة كحل العقال

والملم : النازلة والحادث ، والغماء : الداهية والحزن ، والعقال ككتاب : زكاة عام من الإبل والغنم . ومنه قول أبى بكر رضى الله تعالى عنه : « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه » ، والقلوص الفتية ، والمعنى الأخير هو المقصود .

وعلى ذكر ترتيب هذه الأبيات الثلاثة قبل البيت الثالث من القصيدة كما رأى (شيخو) يرى الدكتور حسين نصار « أن هذا الموضع لايلائمها ، كما لايلائمها أى موضع آخر فى القصيدة »(٢) غير أنى أرى أنه لابأس من أن يأتى ترتيب هذه الأبيات الثلاثة فى أعقاب البيت الأخير من النص ، حيث اتساق الفكرة ، وتلاحم المعانى مما يكاد يظهر من خلال هذه الأبيات ، كما نرى ذلك من العرض التالى للأبيات .

فهو فى هذه الأبيات يستعرض شريطا من الذكريات ، سجل عليه كثيرا من رحلات القنص والصيد التى كان يقوم بها بين الآونة والأخرى ، حين امتطى صهوات الخيل المضمرة التى اعتادت أن تحمل الأبطال فى حومات الوغى ، وميادين القتال ، وهناك فعل الأعاجيب ويالها من مغامرات ، أو بالأحرى طرديات أطلق فيها لفرسة العنان ، حتى كاد — لفرط عدوه — ينهب الأرض وما له لايفعل ، وهو الذى ألف الصعاب وألفته ، ألم يكن سباقا يمرق فى خفة مروق السهم إلى الرمية ، ومع ذلك كله لاتبدو عليه سيماء النصب أو أمارات اللغوب ، فكما خرج إلى الرحلة عاد منها ، لم يفت فى عضده تعب ، أو تلهث

---

(١) شعراء النصرانية ٦٠٥ لويس شيخو
(٢) راجع ديوان عبيد بن الأبرص ١١١

أنفاسه بعد أوبته كلا — ولا تسل عما كان بين غدوه ورواحه من ظباء صرعها على الأرض، ونعام ألقين فى العفر ، وقطعان من الشياه ضربت فى أرجاء الصحراء فرارا من فتكه بها ، ولاسيما وصاحبها أعزل ، يتحرك جواده فى ميادين عديدة كلها قنص ، وذعر ، وحركة ، فلله هذه الأيام التى تسرى فى وعيه سريان الدم فى عروقه .

وهذا جانب من الذكرى ، وتبقى هنالك جوانب أخرى من ميعة الصبا وعنفوان الشباب تحتل مكانا بارزا من نفسه ، حين تسول له نفسه أن يقتحم الخيمة على رشيقة لطيفة ، يتبادل معها من أساليب الغرام ومظاهره الوله ما يكفكف من لواعج الشوق فيه إذ يتناول جيدها برفق ، حتى تميل إليه وتنعطف نحوه وتبثه هى الأخرى همس الشوق ، ودفق الحب ، وذوب العاطفة ، فى أسلوب حريرى ناعم ، يزيد عاطفته ضراما ، ويذكى شعوره كلفا وصبابة ، فما أنضر هذه الأيام وأحلى تلك اللحظات ، وإذا صور « عبيد » نفسه فى صورة اللاهى السادر فى غوايته ، فقد أراد أن يوضح موقفه ساعة الشدة ، وقد شمرت الحرب عن ساقها وكشرت عن أنيابها ، حينئذ تراه فارسا معلما لايشق له غبار ، يتقدم الجيش بفرسه المسومة بعدوها وانطلاقها ويشتد على فرسه وتندفع بين صفوف المقاتلين ، وتتجلى المعركة ثم تخرج ظافرة ، حيث دافع عنها ببسالة منقطعة النظير .

ثم إن دروب الصحراء ومسالكها تشهد له بالخبرة ، فهو « ابن الصحراء » الذى اعتاد أن يقطعها على مافيها من وعوثة وصعوبة بناقته الخفيفة التى ظل بها حتى يرى منها اللحم وأذاب الشحم ، وقد كانت ممتلئة بدينة ، واستحالت ثورا وحشيا يترصد الجو من حوله ، تأهبا لمتابعة الرحلة داخل النفاوز والقفار أفليست ذكريات الشباب أثيرة إلى النفس ، حبيبة إلى القلب فيها عزاء وسلوان عما تجلبه الشيخوخة من ألم مضيض ، وفى تذكر الشباب الذى ولى راحة للنفس التى عاشت حقبة زاهية من العمر ! ! وهكذا العيش لايبقى على حال ، ولايدوم

على وتيرة ، وإن التمرس بتبعات الحياة الجسام ومسئولياتها العظام ليعطى العاقل جرعة من صبر ، إذا ابتأست له الحياة ، ففى الصبر وحده ملاذ النفس وسكينتها ، وماذا عسى أن تبلغ الملمات بالإنسان ، إذا هو أسلم نفسه لآلامها وأحزانها ؟ ثم لماذا لا يأخذ الكيس نفسه بأن الأيام قلب ، لا تثبت على نمط واحد ، « وتلك الأيام نداولها بين الناس(١) » فيترقب منها أن تضىء النور الأخضر أمامه وسط ظلمات كثيفة ، وليل بهيم ، تقرض عليه فيها أحداث الأيام جيناً ونوائب الزمن أحياناً أن يرضخ لأهوالها . . . ألم يقل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فى معنى الحديث « إن لله فى كل طرفة عين مائة ألف فرج قريب » . . هذا ناموس الحياة وسنة الوجود .

والليالى من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيب

---

(١) الآية ١٤٠ من سورة (آل عمران) .

فى إطار القصيدة

القصيدة التى سنمضى فى تحليلها يمكن أن تضوى جانباً من حياة «عبيد» كما أن شعره الآخر قد يعكس جوانب منها ، ونحن لانستطيع بحال أن نقوم شعر « عبيد » بماله وما عليه إلا إذا عشنا — على الأقل — بعض هذه الحياة ، إذ ليس من شك فى أن حياته سجل يواجه الناقد بالعوامل التى أثرت شعره ، وأثرت فيه ، ومن هنا تبدو أهمية الترجمة للشاعر ، ومن الطبيعى أنه لايمكن الإلمام بأطراف تلك الحياة التى عاشها إلا من خلال ما روى عنه من قصائد ، ويقيننا أنه لوكانت هناك مصادر أخرى تسعفنا لكان حكمنا عليه ربما يكون أكثر موضوعية ودقة ، أما « وليس لدينا أخبار عن تفاصيل حياة « عبيد » غير ما جاء فى قصائده » (١) فلا مناص لنا من الرجوع إلى ماكتب عنه .

١ — يحدثنا « ابن قتيبة » عن نسبه فيذكر قائلا :

« هوعبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم . . . . . بن أسد ، وكان « عبيد » شاعراً جاهلياً قديماً من المعمرين » (٢)

ويخلع عليه « الآمدى » نعتاً مؤداه (أنه شاعر مشهور قديم)(٣) .

٢ — عاصره « امرؤ القيس » ووقع بينهما من الشعر ما يدل على معرفة كليهما بالأوابد ، حتى إن « عبيداً » كان يلغز فى تساؤلاته التى طلب إليه « امرؤ القيس » أن يلقيها إليه ، فقال :

ما حية مية أحبت بميتها درداء ما أنبتت سناً وأضراساً

فقال « امرؤ القيس » :

---

(١) طالع مقدمة ديوانه التى ترجمها د. حسين نصار عن ليال ٨ وما بعدها .

(٢) الشعر والشعراء ١/٢٦٧ .

(٣) المؤتلف والمختلف للآمدى ٢٢٧

تلك الشعيرة تسقى فى سنابلها فأخرجت بعد طول المكث أكناسا؟

فقال « عبيد » :

ما السود والبيض والأسماء واحدة لا يستطيع لهن الناس تمساساً ؟

فقال « امرؤ القيس » :

تلك السحاب إذا الرحمن أرسلها روى بها من محول الأرض أيباساً

إلى أن يقول « عبيد » :

ما الحاكمون بلا سمع ولا بصر ولا لسان فصيح يعجب الناسا ؟

ويجيبه « امرؤ القيس » .

تلك الموازين والرحمن أنزلها رب البرية بين الناس مقياساً (١)

٣ ـ وقد نادم الشاعر « حجراً » والد « امرئ القيس » على الشراب ، وهذا دليل العلاقة القوية بينهما ، ونظراً لما تقتضيه المودة بينهما نظم القصائد فيه ، ومن بينها قصيدة يفتتحها بقوله :

طاف الخيال علينا ليلة الوادى من أم عمرو ولم يلمم بميعاد (٢)

ويبدو أن « عبيدا » ربطته الصلة بـ « حجر » فى أثناء تنصيبهم إياه ملكا عليهم ، وظل ينادمه إلى أن حدث خلاف بين « كندة » قبيلة « حجر » و« أسد » سببه امتناع « بنى أسد » عما كانوا يؤدونه لحجر من إتاوة معينة ، وأفضى ذلك إلى سوء معاملته لهم ، مما حداه إلى أن يقتلهم بالعصى ، ومن ذلك الوقت سموا « عبيد العصا » وأسر منهم طائفة فيهم « عبيد بن الأبرص (٣) » ،

---

(١) راجع ديوان (امرىء القيس) ٤٦١ وما بعدها ، وديوان « عبيد » ٧٢ وما يليها .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان، ١٣١ ، وطالع ديوان « عبيد » ٤٧ .

(٣) الشعر والشعراء ١ / ١٠٥

الذى انتهز فرصة محضر وفد بنى أسد بين يدى الملك ، جاءوا إليه يشفعون فى هؤلاء السادة الذين وقعوا فى قبضته ، وقال :

يا عين فابكى بنى أسد هم أهل الندامه
أهل القباب الحمر والـ نعم المؤبل والمدامه
مهلا أبيت اللعن مهلا إن فيما قلت آمـه
فى كل واد بين يثـ ـرب والقصور إلى اليمامه
تطريب عـان أوصيا ح محرق وزقاء هامه
أنت المليك عليهم وهم العبيد إلى القيامه

فرحمهم الملك ، وعفا عنهم ، وردهم إلى بلادهم (١).

٤ — وعادت « بنو أسد » مرة أخرى فثارت على « حجر » وفى هذه المرة شهد « عبيد » مقتل « حجر » وكان طبيعا أن يثير ذلك « امرأ القيس » الذى أبى أن يقبل دية أبيه ، ومضى يتهددهم ويتوعدهم ، وتنطلق لحاة « عبيد » بقصيدة يقول فيها لامرئ القيس :

ياذا المخو فنا بقتـ ـل أبيه إذلالا وحينا
أزعمت أنك قد قتلـ ـت سراتنا كذبا ومينا
هلا على حجر بن أم قطام تبكى لا علينا
أنا إذا عص الثقا ف برأس صعدتنا لوينا
نحمى حقيقتنا وبعـ ـض القوم يسقط بين بيننا
هلا سألت جموع كنـ ـدة يوم ولوا أين أينا
أيام نضرب هامهم ببواتر حتى انحنينا(٢)

(١) ذاته نفس الصفحة . والأبيات فى ديوان «عبيد » ١٢٥ بتغيير ملحوظ .
(٢) ذاته ٢/٢٦٧ وانظر الأبيات فى ديوان (عبيد) ١٣٦ وما بعدها بتغيير فى بعض ألفاظ الأبيات .

٥ – وترجح هذه المواقف مدى ما كان له من منزلة بين قومه ، فهو القائد عنهم بلسانه يقف من قومه موقف المدافع ، ويعرض ما لهم من مآثر وبطولات وإلى هذا نراه قد شارك بنفسه فى قيادة زحوف « بنى أسد » على أعدائهم ، وفى اللمحة التى قدمناها عنه وقد وقع أسيرا مع بعض قومه ما يؤيد ذلك .

٦ – وهكذا يقطع « عبيد » حياته ، فارسا يشيد بشجاعته ، وينوه بفعاله ، ومدرها يملك من اللسان ما يرفع من مكانته ، ويعلى من شأنه إلى أن لقى مصرعه على يد « المنذر الثالث » الذى تولى ملك العرب فى العراق إلى سنة ٥٥٤ م تقريبا إذ ذبحه « على قبر صاحبين له ، غضب عليهما فدفنهما حيين .

وتتلخص قصة قتله فيما يلى :

(ا) أن « المنذر » كانت قد جرت عادته بأن يتخذ له بطانة ، كما هى حال الملوك ، وكان أن اصطفى رجلين من بنى أسد هما خالد بن المضلل ، وعمرو بن مسعود من بنى أسد لمنادمته .

(ب) وتطورت الأمور إلى غير ما كان يرجوه الملك ويتوقعه ، إذ أغضباه فى بعض أموره ، فتخلص منهما بالقتل ، وأقام على مثواهما عمودين سميا بالغريين .

(ج) ورأى « المنذر » أن يكون له يومان فى السنة ، يوم نعمى ويوم بؤسى ، فأما اليوم الأول فيكون للمنادمة ، ويستأثر به أول من يقدم على « الملك » ، وأما اليوم الآخر فعلى العكس من ذلك يذبح فيه الملك أول من يطالعه ، وينضح بدمه قبرى صاحبيه .

(د) وكان (عبيد) أول من قدم على الملك فى يوم بؤسه ، « فقال له هلا كان الذبح لغيرك يا عبيد ؟ فقال أنتك بحائن رجلاه ، فقال له « المنذر »

أو أجل بلغ أناه ، ثم قال له : أنشدنى فإن شعرك يعجبنى ، فقال : « حال الحريض دون القريض ، فقال له رجل من حاشية الملك : ما أشد جزعك من الموت » فأجابه بقوله : لا يرحل رحلك من ليس معك » فقال له « المنذر » أنشدنى من قولك « أقفر من أهله ملحوب ، فقال « عبيد » :

أقفر من أهله عبيد فاليوم لا يبدى ولا يعيد

ثم أمر به فقتل بعد ذلك ، بعد أن سأله « أى قتلة تختار؟ قال « عبيد» : اسقنى من الراح حتى أثمل ، ثم افصدنى الأكحل ففعل ذلك به ، ولطخ بدمه الغريين» (١) .

هذه فى إيجاز قصة مقتله .

٧ — وأما شعر « عبيد » فإنه يجنح فى عمومه إلى العتاب والفخر والوصف والحكمة ، والاعتبار وهو شعر يلبس غلائل الصدق ، وكأنما هو ترجمة أمينة عن حياته التى تقلبت به ظروفها وملابساتها ، على أن « ابن قتيبة » ينوه بقصيدته :

أقفر من أهله ملحوب فالقطبيات فالذنوب

ويعتبرها إحدى المعلقات السبع (٢) فيما يبدو . وربما اعتبرها كذلك لما حوته من بعض ألفاظ لغوية غريبة من جهة ، ولما تضمنته من حكم تعددت داخل هذه القصيدة ، من مثل قوله فيها :

وكل ذى نعمة مخلوسها وكل ذى أمل مكذوب
وكل ذى إبل موروثها وكل ذى سلب مسلوب

---

(١) راجع الشعر والشعراء ١/٢٦٨ وكذا الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى للاستاذ « محمد هاشم عطية ٢٩٨ .

(٢) الشعر والشعراء ١/٢٦٨ .

وكل ذى غيبة يئوب — وغائب الموت لا يئوب
أفلح بما شئت فقد يبلغ باضـ — ـعف : وقد يخدع الأريب(١)

إلى غير ذلك من حكم مبثوثة فى القصيدة .

ولست أدرى كيف عد « ابن قتيبة » مثل هذه القصيدة من المعلقات ، مع أن القصيدة مجوفة ، فإلحاقها بالشعر الوعظى الذى لا ينطوى على أكثر من الحكم أولى من اعتبارها معلقة شأت كثيرا من القصائد العربية ، ويذّتها ولو كان مناط الجودة فى القصيدة هى هذه الحكم التى ساقها «عبيد» ما كان للنقاد أن يعزفوا عن شعر « صالح بن عبد القدوس » وأضرابه من الشعراء ، ومن ثم اعتبرها « التبريزى » أحد شراح المعلقات ملحقة بالمعلقات السبع ، وليست منها ، وهو ملحظ نقدى ذكى يشف عن بصر بالنقد ، وعلم به .

٨ — ولا يوهم هذا الكلام عن القصيدة السابقة أن شعر « عبيد » عطل عن الجودة ، فلم يقل بذلك أحد ، وكيف ، وهو الذى يمثل قمة من مدارس الشعر الجاهلى (٢) التى دانت للمشاهير الأفذاذ فيهم من أمثال « امرىء القيس» و « عبيد » و « طرفة » ومن إليهم ، وحسبه أن « الحطيئة » قدمه على شعراء آخرين حين أتى « مجلس سعيد بن العاصى » وهو بالمدينة يعشى الناس فلما فرغ الناس من طعامهم ، وخف من عنده نظر ، فاذا رجل قاعد على البساط ، . . ثم خاضوا فى أحاديث العرب والشعر وهم لا يعرفونه ، فقال « الحطيئة » .

ما أصبتم جيد الشعر ، فقال له « سعيد » : وعندك من ذلك علم ؟ قال نعم قال ، فمن : أشعر الناس ؟

(١) راجع هذه الأبيات فى الديوان بتغيير ملحوظ فى بعض ألفاظها ص ١٣ وما يليها .
(٢) انظر : دراسات فى الأدب العربى ١٤٠ .

قال : الذى يقول :

لا أعد الإقتار عدما ولكن فقد من رزئته الإعـــدام

يعنى « أبا دؤاد » قال ، ثم من ؟ قال : الذى يقول .

أفلح بما شئت فقد يبلغ بالـ ضعف وقد يخدع الأريب(١)

٩ ــ وفى الحديث عن شعره ومكانه منه ، يختلف النقاد القدامى فى تحديد منزلته ، فاذا كان « ابن قتيبة » قد اعتبره من أصحاب المعلقات ، فابن سلام الجمحى » يضعه فى الطبقة الرابعة من شعراء الجاهلية مع طرفة ، وعلقمة ابن عبدة وعدى بن زيد وإن كانت عبارة « الجمحى » فيه تشعر بأنه لم يعرف له من الشعر سوى قصيدته (أقفر من أهله ملحوب) حيث ذكر :

« وعبيد بن الأبرص » قديم عظيم الذكر عظيم الشهرة ، وشعره مضطرب ذاهب ، لا أعرف له إلا قوله .

أقفر من أهله ملحوب فالقطبيـــات فالذنوب

ولا أدرى ما بعد ذلك (٢) .

وقد يكون سبب ذلك أن « الجمحى » فى كلامه هذا ينطلق من أنه « لم يدرك الوقت الذى جمعت فيه أشعار « عبيد » أو لم يبلغه على الأقل(٣)

١٠ ــ ومما يتمثل به من شعره قوله .

لأعرفنك بعد اليوم تندبنى وفى حياتى مازودتنى زادى

---

(١) الشعر والشعراء ١/٢٢٦

(٢) طبقات فحول الشعراء ١/١٣٨

(٣) الأدب العربى وتاريخه ٣٠٣

١١ – ومن جيد شعره « ما اختاره له « أبو تمام » مما لم يذكر فى ديوان شعره من قوله يرثى « فطرة الطائى » .

نعم المجير وخير أسرته للضيف يعشو ناره قطره
فاقد يهيب بقلب ذى شرر ذاك فلا تتعرض شرره
والجار يحبوه بجفنته ولا يذم رفيقه خبره
فأصابه حين فأدركه فلنعم مقبورا ومن قبره
والخير لا يأتى على عجل والشر يسبق سيله مطره(١)

١٢ – ويستجاد له من الوصف قوله .

دان مسف فويق الأرض هيدبه يكاد يدفعه من قام بالراح
ينفى الحصى عن جديد الأرض مبتركا كأنه فاحص أو لاعب راح
فمن بنجوته كمن بعفوته والمستكن كمن يمشى بقرواح(٢)

والمتأمل فى شعر « عبيد » يكاد يلحظ أن شعره « الوصفى » لصيق جله بالطبيعة ومظاهرها ، من مطر وسحاب إلى أمواج وجبال . . وغيرها مما يرد فى قصائده .

ورىما اكتسى الوصف فى الشعر الجاهلى هذه الغلائل الطبيعية ليدل بذلك على الفنية ، وقوامها :

(ا) الأمانة فى نقل الشاهد التى يصفها ، مما يخلع على الموصوف جمالا ورونقا .

(ب) إبداع الجاهلى فى وصفه ، واعتماده فيه على وسيلة تجسد مرائيه ، وهى « التشبيه » ...

والملاحظ بصفة عامة أن « أداة الإحساس التى يعتمدها الشاعر هى عينه

---

(١) الوحشيات ١٣٦ دار المعارف .

(١) الشعر والشعراء ١/٣٠٧ وانظر ديوان (عبيد) القصيدة التى مطلعها ص٣٤ :
هبت تلوم وليست ساعة اللاحى هلا انتظرت بهذا اللوم أصباحى

فالأوصاف والتشابيه القائمة على حاسة السمع قليلة نسبيا ، أما حاسة الشم فهي وإن كثر ورودها فإنها تكاد تكون محصورة فى النسيب (١) .

١٣ — ومما أخذ عليه قصيدته التى يستهلها :

يا دار هند عفاها كل هطال والجو مثل سحيق اليمنة البالى

قوله منها :

تحتى مسومة جرداء عجلزة كالسهم أرسله من كفه الغالى

والشيب شين لمن أرسى بساحته لله در سواد اللمة الحـالى

ويعقب العسكرى على هذين البيتين بقوله .

« فهذا نظم حسن وتأليف مختار إلا قوله : « سواد اللمة الحالى » فانه من المعاظلة » (٢) ؟

إلى غير ذلك .

---

(١) دراسات فى الأدب العربى ١٦٤ .

(٢) الصناعتين للعسكرى ١٧٢ .

تأملات فى القصيدة

١ — المحور الأساسى الذى تدور حوله القصيدة : تأملات فى الماضى والحاضر ، والتأملات فى الحياة : ماضيها وحاضرها ومستقبلها تخلب أنظار الشعراء وتستهويهم ، إذ هى لب الحياة ينقله الشاعر بعد سنه اللاقطة فى صورة أحداث كان لها عمر فى الوجود ، وصلة بالزمن ، إذ كانت أحداثاً تمثل على مسرح الحياة ، وقد يضع الشاعر الحياة فى رؤية مستقبلية يضفى عليها من أفكاره وخيالاته ما يمنحها عبقاً خاصاً تزهى به الأيام وحينئذ تخلد نظرة الشاعر ، كما خلدت على مر الزمن نظرات الشعراء فى كلمات وأساليب ورؤى . .

٢ — ومن الرؤى الشعرية : تقلب الشاعر بين شباب اعتصرته أحداثه ، ومشيب يخلد صاحبه فيه إلى الدعة والسكون ، والحكمة المؤثرة ، والوصية الجامعة ، تأتى إلى الشاعر مواتية ، وكأنها الثمرة الدانية يقتطفها نتيجة خبرته بالحياة وتعامله معها ، ولما لهذا المعنى من حيوية دائمة تتجدد بتجدد الأيام والحدثان كانت لهوات الشعراء أوتاراً تضرب على لحنه ، وتكرر معزوفته .

٣ — و(عبيد بن الأبرص) لايعدوأن يكون واحداً ممن استقبلتهم الروضة الشعرية الأنف إبان الحياة الجاهلية ليغنى فيها لحناً تجاوبت به الحياة ، وترددت أصداؤه فى جنباتها فيما بعد . . . وليس بدعا أن يتحدث عن شبابه ومشيبه على ذلك النحو الذى نطقت به قصيدته من الوقوف أمام الأطلال وحيال الدمن . . والذى يبدو من هذه الصورة فى الشعر الجاهلى وبخاصة مفتتح قصائدهم أن الشاعر يذرف الدموع على بضعة منه : شبابه الذى ولى أوتى عليه إلى الذهاب والتلاشى ، ويبدو الربط بين حديثه عن الأطلال وشبابه الذاهب قوياً ، تجمع بينهما لحمة النسب وأواصر الألفة . وعناصر الوحدة ، ويلوح ذلك فى القصيدة التى بأيدينا فى استهلال الشاعر بحديثه عن الرسوم والمعالم .

ليس رسم على الدفين ببالى   فلوى ذروة فجنبى أثـــال

ثم فى حديثه مباشرة عن قصته مع زوجه ، وهى قصة شكلت ملامحها أحداث المشيب :

تلك عرسى غضبى تريد زيالى   ألبين تريد أم لـــدلال

وحتى إذا حلا للشاعر أن يتغزل أو يفجر فى لهوه ، كان ذلك منه دليلا على أن ملذاته لن تدوم ، فلا عليه أن يشبع رغائبه من الكئوس المترعة فى متناوله ، على نحو ما فعل (امرؤ القيس) فى معلقته ، إذ صدرها بقوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ومضى فى معلقته إلى أن قال :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلـــل   وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى
وإن كنت قد ساءتك منى خليقة   فسلى ثيابى عن ثيابك تنسل
أغرك منى أن حبك قاتـــلى   وأنك مهما تأمرى القلب يفعل(١)

إلخ الأبيات التى وردت فى معلقته .

ولا نذهب فى التعليل أكثر من ذلك ، بل ولا نميل إلى ما ذكره بعض الباحثين من أن مقدمات القصائد التى تتحدث عن المرأة فى إطار الصورة الكلية لقصيدته تمثل واقعاً شعرياً ملموساً حقاً قبل الإسلام . من أن الشاعر الجاهلى المتمثل فى هذه المرحلة الشعرية إنما يجتاز مرحلة الرمز لمرحلة أصبق ، على حد تعبير (امرىء القيس) :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا   نبكى الديار كما بكى ابن خذام

إذن فقد بكى (ابن خذام) الديار حقيقة ، وبكاها (امرؤ القيس) مجازا

---

(١) ديوان (امرىء القيس) ١٢ وما بعدها .

ومن هذا المنطلق فقط نفهم عمق التجربة الشعورية التى يعانيها الشاعر الجاهلى لدى وقوفه على الطلل البالى ، فلو لم تكن هذه الطلول الشاخصة ذات ارتباط بمقدسات الشاعر وامتداد فى ماضيه الذى تتقمصه أرواح الأسلاف لم نجد لهذا التقليد الموروث هذه القوة ، ولا يمنع أن تتواجد طائفة من الشعراء قبيل الإسلام تدرك معنى هذه النقط للموقف الشعرى الموروث إن لم يكن غالبيتهم ، ومن غير هذا التعليل ليس من السهولة تفسير هذه الرهبة ، وهذا الشعور بالجلالة والتقديس لأحجار تافهة القيمة فى عرفنا (١)

والذى عليه هذا الباحث أن تلك الطلول إنما وقف أمامها الشاعر الجاهلى تقديساً لها من حيث إنها الآلهة معبودة ، أو خادمة فى معبد مقدسة كما يصرح بذلك . .

ولا جدال فى أن هذه النظرة لا تقوى على الصمود أمام نظرات الشعراء الذين قطع الإسلام صلتهم بالوثنية ، ومع ذلك فقد مضى هؤلاء الشعراء ينسجون على منوال الجاهليين فيبدءون قصائدهم بمطالع طللية غزلية ، احتذاء بتلك البدايات التى استفاضت بها قصائد الشعر الجاهلى ، ولا يقدح فى هذا دعوة « أبى نواس » الشاعر العباسى إلى أن يعدل الشعراء عن بكاء الديار والأطلال ، فقد كشف عن الأسباب الكوامن وراء ذلك ، فيما أثر عنه من شعر حيث قال :

أعر شعرك الأطلال والمنزل القفرا ... فقد طالما أرى به نعتك الخمرا
دعانى إلى نعت الطلول مسلط ... تضيق ذراعى أن أرد له أمرا
وسمعا أمير المؤمنين وطاعة ... وإن كنت قد جشمتنى مركباً وعرا (٢)

---

(١) راجع مجلة (آفاق عربية) السنة الثانية أغسطس ١٩٧٧ من مقال بعنوان : (المرأة فى أيام العرب) د . عادل جاسم البياتى .

(٢) العمدة لابن رشيق ١/٢٣٢ .

ويتراءى لى أن شعراء عصر صدر الإسلام ومن وليهم رأوا فى مفتتح قصائد الجاهليين منهجاً ينبغى أن يجتذى من حيث المعتقد ، والأصول أو الأسس الفنية ، وإلا فلماذا التحمس للمقدمات الغزلية ، أو المطالع الطللية ؟ . . وربما كان أشد هؤلاء الشعراء حرجاً الإسلاميون ، ومع ذلك مضوا يقتفون أثر الشعر الجاهلى فى الهيكل العام للقصيدة ، وكأن رضاهم عنه إشعار منهم بأن نظرة الجاهليين كانت مقبولة مستساغة لاتصادم فكرا ولا عقيدة ، ولا ترتطم مع منهجهم الفنى فى قول القريض .

٤ — يجىء الشباب والمشيب فى صورة شعرية ألاقة منذ تفتقت أذهان الجاهليين بالحديث عنه ، ويزخر شعرنا العربى على اتساع رقعته وامتداد ساحته بالحديث عنه ، ونسوق — هنا — بعض النماذج الشعرية التى تدل على كلف الشعراء بهذا الموضوع :

(أ) فهذا (جرير) يستهل قصيدته :

أتصحو بل فؤادك غير صاح عشية هم صحبك بالرواح
تقول العاذلات : علاك شيب أهذا الشيب يمنعنى مراحى (١)

(ب) وذلك « أبو تمام » يصور كره النساء للمشيب فى قوله :

لعب البين بالمفارق بل جد فأبكى تماضرا ولعوبا
خضبت خدها إلى لؤلؤ العقد دما أن رأت شواتى خضيبا
كل داء يرجى الدواء له إلا الـفظيعين : ميتة ومشيبا
يانسيب الثغام ذنبك أبقى حسناً عند الحسان ذوبا
ولئن عبن مارأين لقد أنـ سكرن مستنكرا ، وعبن معيباً
أو تصدعن عن قلبى لكفى بالشيب ينبى وينهن حسيبا
لو رأى الله أن للشيب فضلا جاوزته الأبرار فى الخلد شيبا

(١) ديوان جرير ١/٨٧ .

وقال البحترى فى المعنى ذاته :

رأت فلتات الشيب فابتسمت لها وقالت : نجوم لو طلعن بأسعد
أعاتك ماكان الشباب مقربحى إليك : فألحى الشيب إذا كان معبدى
تزيدين هجراً كلما ازددت لوعة طلابا لأن أردى فها أناذا ردى
متى أدرك العيش الذى ثمات آنما إذا كان يومى فيك أحسن من غدى(١)

ويأخذ حديث الشعراء عن الشباب والمشيب أفانين من القول ، فإذا كان هنا لك منهم من يحن إلى شبابه حنينا عارما ، فإن فيهم كذلك من مدح شيبه من مثل قول الشاعر ويروى لعلى بن الجهم :

لا يرعك المشيب يا بنة عبد الله فالشيب حلية ووقار
إنما تحسن الرياض إذا ما ضحكت فى خلالها الأنوار

وماأحسن ماقال « امرؤ القيس » وأجوده ، وأصحه فى التعزى عن المشيب :

ألا إن بعد العدم للمرء قنوة وبعد المشيب طول عمر وملبسا

وقال آخر ومن هذا أخذ هو وغيره :

والشيب إن يحلل فإن وراءه عمرا يكون خلاله منفس (٢)

وليس من داع أن تستبحر عرض الأنماط خلال الأعصر الأدبية المختلفة فحسبنا هذه اللمسة السريعة ، لتدل على مبلغ عناية الشعراء بالحديث عن حياتهم ماضية وحاضرة .

٥ ــ والقصيدة صوت العقل الموجه ، والحكمة السديدة ، ودعوة للزوج أن تظل على ما عرفت به من الوفاء المصون والرابطة القوية التى ينبغى ألا ينال منها الواشون الذين يزينون لزوجه أن تبين عنه ، ولو أن هؤلاء

(١) الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى ٢/٢٠٢ ، تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر .
(٢) ذاته ٢/٢٢٩ .

علموا مغبة البين لما سولت لهم نفوسهم أن يكونوا على هذا الخلق الذميم ، وكم للبين من قسوة ومرارة ، صورهما الشاعر فى قوله :

أرى دارها فى كل حين وساعة ... ولكن من فى الدار عنى مغيب
وهل نافعى قرب الديار وأهلها ... على وصلهم منى رقيب مراقب
فيالك جار الجنب أسمع حسه ... وأعلم أن الصين أدنى وأقرب
كصاد يرى ماء الطوى بعينه ... وليس إليه من سبيل يسبب
كذلك من فى اللحد عنك مغيب ... وما دونه إلا الصفيح المنصب(١)

٦ — وهكذا تأتى القصيدة متلاحمة الفكرة ، محكمة النسج لا تحس فيها بنتوء أو فجوة ، ولا تشعر بما قد يخلخل من سياقها ، ويغض من تتابعها فى سلسال دافق ، مصدره العاطفة وتبعه العقل والوجدان .

٧ — والقصيدة — بعد هذا كله — من بحر الخفيف وهو بحر عروضى لم يزاحم محور الشعر العربى التى تحركت على محاورها القصيدة العربية بكثرة إلا فى العصر العباسى ، ولاسيما فى منتصف القرن الرابع الهجرى ، حيث أخذ الشعراء ينسجون قصائدهم على منواله ، وتبوأ — بسبب ذلك — المرتبة الثانية : بعد أن كانت دواوين بعض شعراء العصر الجاهلى تخلو من قالبه(٢) اللهم إلا فى شعر مدرسة تفردت بالتنوع فى موسيقا الشعراء كان ، موطنها مناطق شرق الجزيرة والمناطق العراقية والحيرة ، ومن أعلام هذه المدرسة الشعرية فى العصر الجاهلى : أبو دؤاد الإيادى ، والمتلمس ، وطرفة ، وعدى بن زيد والأعشى(٣) ، ويجئ الشطر الواحد منه على وزان (فاعلاتن . مستفع لن فاعلاتن) ، ولم يأت من القصائد التى ضمها ديوان « عبيد ابن الأبرص » على هذا البحر سوى قصيدتين ، إحداهما بائية مطالعها :

---

(١) طوق الحمامة لابن حزم الأندلسى ١٠٠ .
(٢) طالع : موسيقى الشعر للمرحوم الدكتور إبراهيم أنيس ١٩٣
(٣) انظر : دراسات فى الأدب العربى ٢٦٤ وما يليها

لمن الديار أقفرت بالجناب غير نؤى ودمنة كالكتاب
غيرتها الصبا ونفح جنوب وشمال تلرو دقاق التراب
فنراوحتها وكل . ملث دائم الرعد مرجحن السحاب
أوحشت بعد ضمر كالسعالى من بنات الوجيه أو حلاب(١)

إلى آخر القصيدة التى تبلغ أبياتها ثمانية عشر بيتا .

والثانية هى « اللامية » التى بين أيدينا — والقصيدتان تجمعهما « المقدمة الطللية » التى استغرقت من كل من القصيدتين أبياتا ، ضمنها حديثا عن الأطلال الدارسة فى كلتيهما ، هى أطلال غيرتها قسوة الطبيعة وعدت عليها فى وحشية أحالت منها المعالم ، وحول هذا الإطار جاءت عديد من قصائده ، بيد أنه كثير التنقل فى هذه المقدمات ، وقد تدل تساؤلاته على مدى دهشته وقد أجال بصره فى تلك الأماكن التى شهدت مراتع الصبا ، وعبقرى المنى والأحلام ، ومن تساؤلاته تلك فى القصائد التى أشرنا إليها قوله :

لمن طلل لم تعف منه المذانب فجنبا حبر قد تعفى فواهب(٢)

وقوله :

لمن دمنة أقوت بجوة ضرغد تلوح كعنوان الكتاب المجدد(٣)

وقوله :

لمن الديار بصاحة فحروس درست من الإقفار أى دروس(٤)

وقوله

أمن رسوم نزيها ناحل ومن ديار دمعك الحامل(٥)

---

(١) ديوان (عبيد) ٢١ .
(٢) الديوان ص ٨ .
(٣) ذاته ٥٢ .
(٤) ذاته ٦٧ .
(٥) ذاته ٩٧ .

وإذا راحت تساؤلاته تشكل ملحظا ينطوى على لواعجه وآلامه ، فقد جاءت بعض قصائده الأخرى تتصدرها هذه المقدمات عينها ، لا فى تساؤل ودهشة ، بل فى تبصر وعبرة ، وكأن تموجات الانفعال التى تنحدر فى قصائده هذه ترسم « عبيدا » وتقدمه فى إطارين :

١ — إطار الداهل الشرود وقد تأمل ما وقعت عليه عيناه بالأمس القريب ، فإذا هو على النقيض مما رآى ، يعمره الأسى وتسكنه الوحشة ، فأطار ذلك لبه ، ومضى يريد أن يستوثق مما هاله وأفزعه ، فأقام تساؤله مقام المنادى : لمن هذا المكان القفر ولم أشهده على تلك الصورة ؟

٢ — إطار الحكمة الواعية ، يضعها فى صورة تقريرية مباشرة ، تنطق بفعل الأيام ، وتوالى الزمن ، وليس هناك ما يدعو إلى التساؤل ، طالما وقرت الحكمة بين ضلوعه .

على أن (عبيدا) فى هذا الإطار أو ذاك لم يكن نشازا فى خواطره ، أو شاذا فى رسم مرائيه ومشاهده ، فعلى غرار ما فعل جاءت المقدمات الطللية التى حفل بها الشعر الجاهلى ، وكأنما مقدمة القصيدة الجاهلية معزوفة حزينة تعيد أصداء الحب الذى شف العربى ، وتملؤه بالأسى « على مافات فكأن الشاعر يتغنى بعاطفة قد انقضت ، أو سعادة أفلت كلما أظل رحيل محبوبته ، ويوقع نغمة لاهفة أسيانة يعطل جمال أثرها فى النفس تكرارها فى بدء كل قصيدة ، ولكنها على ذلك تظل مليئة بالحياة لأن منشئها يملك زمام الكلام ، وكثيراً ما ترتد عاطفته التقليدية إلى شعوره بشىء من الأسى على نفسه ، وبعد صيحة جياشة نابعة من القلب ينتقل من النسيب إلى الموضوع الثانى فى القصيدة(١) .

ونزيد الأمر وضوحا فنقول : إن هذه المقدمة الطللية استأثرت بكثير من قصائد الجاهليين مع مقدمات أخرى تبدو أحيانا غزلية ، وتتمحض أحيانا

---

(١) دراسات فى الأدب للعربى ٢٠٣ لفوستاف فون جرنباوم

أخرى لوصف الظغائن . ه . وهذه المقدمات جميعها تمثل حياة الشاعر الجاهلى بدويا كان أو حضاريا ، إذ يجد فيها نفسه ، ويرى فيها ماضيه ، ويتمنى أن لو عاد إليه شبابه من جديد حتى يزيد به الهم ، ويفرى وجدانه الفراق والترحال ..

ويذكر الدكتور « حسين عطوان » ما يلقى على هذا المعنى فضلا من التفصيل قائلا :

« فى المقدمة الطللية — وهى أكثر المقدمات شيوعا فى صدور القصائد الجاهلية كان الشاعر يقف عند معاهد صاحبته فيراها آثارا داثرة، ومعالم دارسة ، قد بدلت من الحياة موتا ، ومن الحركة سكونا ، ومن الإنسان حيوانا ، ولم يبق منها سوى النؤى والأثاقى والرماد والأعواد والأوتاد ، وتتراءى له بإزاء هذا المنظر الموحش مواكب حبه ، وذكريات شبابه فيألم لضياعها ويبكى على فقدانها .

وفى المقدمة الغزلية أدار الشاعر الحديث حول موضوعين أساسيين : بعد المحبوبة وما خلفه له نأيها من أشجان وأحزان يعيش لها وعليها ، والعودة إلى الماضى إلى الساعات بل اللحظات التى تمتع فيها بقرب المحبوبة منه ، والتقائها به ، ومواصلتها له ، وكيف كانت تعجبه وتصيبه بمحاسنها ومفاتن جسدها .

وفى المقدمات التى وصف فيها الظعن أظهر فزعاً وجزعاً شديدين من الفراق المحتوم المشئوم وتقطرت نفسه ، وغرق خداه فى سيل من الدموع ، وليس من شك فى أنه لم يسفح العبرات إلا تفجعاً على حبه الدائر فى الأيام الماضية ، وهذه المعانى تظهر بوضوح فى مقدمات الشيب والشباب » (١)

---

(١) مقدمة القصيدة العربية فى الشعر الجاهلى ٢٢٨ .

٨ – ويبدو من استعراض ديوان « عبيد » أن القصائد الدالية (نسبة إلى حرف الروى : الدال) تغلب على ديوانه ، حيث بلغت عشر قصائد على حين بلغت القصائد اللامية فيه (سبع قصائد) ، ومعنى ذلك أن قافية « الدال » تأتى فى المقام الأول من حيث عدد القصائد ، تليها قافية اللام ، ثم تتفاوت قصائد الديوان بعد ذلك بالنسبة إلى القوافى الأخرى فى ترتيب تنازلى ، لينتهى عند قافية الصاد والضاد والهاء « على نسق واحد ، حيث لم يضم ديوان « عبيد » غير ثلاث قصائد موزعة على هذه الأحرف الثلاثة بالتساوى .

وهذه قضية أخرى يعوزها « البحث »

ويتقاضانا بحث هذه القضية أن نبادر إلى القول بأن « عبيدا » لم تقع فى ديوانه قصيدة أو قصائد جاءت على أحرف الروى : الهمزة ، والتاء ، والثاء ، والجيم ، والخاء ، والذال ، والشين ، والظاء والعين والغين والفاء والهاء والواو والياء .

ويغلب على ظننا أن حرف الدال يمثل أغلب قصائد الديوان ، يليه حرف اللام لأن « الدال » من الأصوات العربية الشديدة كما تقررها التجارب الحديثة (١) . التى جادت لديه فى أغراضه الشعرية فى الخبر والمديح والحكمة والفخر ، والوصف ، وربما كان هذا هو السبب فيما غلب على شعره من معان حملتها قصائده ، هذا فيما يتعلق بالدال .

وأما اللام فقد جاءت دون (الدال) وفى المنزلة التالية ؛ لأنها تجود فى الوصف والخبر (٢) « من ناحية ، ولأنها « أكثر الأصوات شيوعاً « فى اللغة العربية » (٣) على أن الدال واللام تجىء كلتاهما رويا بكثرة

---

(١) الأصوات اللغوية د. إبراهيم أنيس ٢٣ (٢) مجلة الشعر أكتوبر ١٩٧٨ ص ٤٠
(٣) الأصوات اللغوية ٦٨

تتفاوت من شاعر إلى آخر (١) . وهذا فيما يتراءى لى من الأسباب التى حدت بالشاعر إلى أن ينسج قصائده على هذا المنوال ، إذ إن قصائده السبع بما تخللها من مقطعات صغيرة تدور حول الوصف والخبر تقريباً .

والواقع أننا نحاول بحث هذه القضية لما تنطوى عليه من أثر فى موسيقى القصيدة الشعرية ، وكيف استطاع الشاعر بما له من ضلاعة أن يصب تجربته الشعرية فى قالب موسيقى يثرى القصيدة وإلى أى مدى واتاه ذلك .

وحقاً كان (عبيد) موفقاً فى ذلك إلى حد كبير حيث عمد إلى أن تكون قصيدته زاخرة بايقاعات وأنغام صوتية عديدة تراها قبل حرف الروى مباشرة .

وكل هذا يعنى توازناً شديداً فى نغم القصيدة الجاهلية ، توازناً فى جميع عناصرها الموسيقية ، وهو توازن ينطوى ارتباطا متبادلا بين الأبيات ، بل لكأنه ينطوى قوة جاذبة تجذب بعضها إلى بعض ، حتى تدرك فى محور واحد على نظام محكم فى التفاعيل وفى الحركات والسكنات ، نظام كأنما تقيسه آلة ، آلات الزمن الدقيقة فكل بيت لحظة من الزمن لا تقل ولا تكثر عن لحظة البيت الذى يسبقه أو يتلوه حتى لا يحدث اختلال فى انفعالات السامع ، بل حتى لا يحدث أدنى اختلال فتموجات النغم متسلسلة ثابتة يخفق معها القلب ، ويتركز السمع تركزا شديداً فليس هناك أى اهتزاز غريب عن النغم ، وليس هناك أى نشاز أو تشويش (٢).

وعلى ذكر حرف الروى : اللام للقصيدة موضوع الحديث يجمل أن نشير إلى أنها « من أوضح الأصوات الساكنة فى السمع ، ولهذا أشبهت من هذه الناحية أصوات اللين ، فهى جميعاً ليست شديدة أى لا يسمع منها انفجا

---

(١) راجع : موسيقى الشعر ٢٤٨

(٢) فى النقد الأدبى ١٠١ د. شوقى ضيف .

وليست رخوة فلا يكاد يسمع لها ذلك الحفيف الذى تتميزه الأصوات الرخوة (١).

وقد تكون الأغراض الشعرية التى تشكل قصائد « ديوانه » مما يتسق مضمونها مع حرف « الدال » إذ هى صوت شديد مجهور، فناسب ذلك أن تقفز بين حروف الروى المختلفة ، لتحتل المكانة البارزة بينها ، انسياقاً مع طبيعة الأغراض الشعرية أو التجربة الشعرية التى يعبر عنها الشاعر .

٩ – وأسلوب القصيدة فى مجمله يتسم بطابع التقريرية والمباشرة ، عدا ما يتخلله – أحياناً – من صور تنأى عن الخبر ، وذلك واضح فى النصائح التى يزجيها الشاعر فى مواطن النص ويذهب فيها مذهبا ، يحاول فيه أن تواجه الملابسات الطارئة التى غيرت صفو حياتها الزوجية ، ورنقتها بالتمرد عليها ، والإقلاع عنها ، فمرة نراه يقول فى نبرة هادئة :

فدعى مط حاجبيك وعيشى معنا بالرجاء والتأمل

وتعلو نبرة السخط عنده ، فنراه يذكر مرة أخرى :

فارفضى العاذلين واقنى حياء لا يكونوا عليك خط مثال

ويحظ مما نعيش فلا تذ هب بك الترهات فى الأهوال

ويجنح أسلوب الشاعر إلى التقرير والمباشرة ، لأنها تجربة عاشها فى الماضى ، تمثل سلوكه وحياته ، فلم يكن بد من نقل معالمها كما شهدها واقع الوجود ، ومن ثم أخذ التصوير فى القصيدة خطاً واضحاً ، إذ ابتعد عن الإبعاد فى الخيال والتحليق فى مسابحه وكان مشدوداً بطبيعته إلى المجال الذى تحرك على أرضه . . .

ولعل هذا مما جعل أسلوب الشاعر فى القصيدة طيعا لا وعورة فيه ولا خشونة . فألفاظه وتراكيبه بعيدة عن الحرشية والإغراب ، وإذا كانت

---

(١) الأصوات اللغوية ٦٤ .

الحوشية عند بعض الشعراء سجية فانها عند بعضهم الآخر مظهر التكلف الذى يجافى الطبع ولا يأتلف معه ، وتلك مذمة تمسخ الشعر وتجعله ساقطاً ومرذولا .

ومن النقاد القدامى من فطن إلى التفرقة الدقيقة بين لفظين يأتى أحدهما سمحاً فى عالم الشعر فيكون له وزنه ، ويجئ الآخر مستثقلاً جاسيا يمجه الذوق كقدامة بن جعفر وذلك حيث يذكر أن من عيوب اللفظ « أن يرتكب الشاعر فيه ما ليس يستعمل ولا يتكلم به إلا شاذا ، وذلك هو الحوشى الذى مدح « عمر بن الخطاب » « زهيرا » بمجانبته له ، وتنكبه إياه ، فقال : كان لا يتتبع حوشى الكلام ، وهذا الباب مجوز للقدماء ليس من أجل أنه حسن ، لكن من شعرائهم من كان أعرابيا قد غلبت عليه العجرفة ، ومست الحاجة إلى الاستشهاد بأشعارهم فى الغريب ، ولأن من كان يأتى منهم بالحوشى لم يكن يأتى به إلا على جهة التطلب والتكلف لما استعمله منه لكل مادته ، وعلى سجية لفظه ، فأما أصحاب التكلف لذلك فهم يأتون منهم بما ينافر الطبع وينبو عنه السمع »(١) .

١٠ — ومعانى القصيدة تسهم فى تجسيدها بيئة الشاعر بكل ما يحيط بها من مظاهر وظواهر ، وهى معان لا التواء فيها ولا عمق ، كما أنها تنزع إلى الإجمال والبعد عن الإسهاب وإن حاول «عبيد» وهو يستعرض ذكريات شبابه أن يقف عند بعض المعانى . ولكنه سرعان ما انتقل منها إلى معنى آخر ، ومع أن « القصيدة » جاءت على تلك الشاكلة من الحديث عن الأطلال فحديثه عن موقفه من زوجه ، فأوبة إلى الماضى ، فقد جاءت بعض معانيها قائمة على الحجة الهادئة والاستمالة الراشدة ، وتدلت إلى ما يشبه تحليلات المناطقة وجد الهم ، وهى نزعة عقلية بحتة وإن لم يسرف فيها الشاعر أو ينقص على نحو ما يأخذ به المناطقة أنفسهم من احتمالات وفروض ، أليق بها أن تكون فى مجال غير مجال الشعر ؛ وعذر «عبيد» — فى هذا — من الوضوح بمكان إذ الموقف الذى كان يعيشه يحتم عليه أن يقول :

إن يكن طبك الفراق . . . الخ أو يكن طبك الدلال ... الخ

(١) نقد الشعر لقدامة ١٧٢ تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجى

ويأبى الشاعر إلا أن يهتم بالحكمة التى هى امتداد طبيعى للمعنى الشعرى الذى يتصدى له .

والمعانى التى ضمنها قصيدته لاتعدو أن تكون فخراً ببطولته وإشادة بمغامراته فى حقبة زاهية من العمر ، بعيداً عما يدانيها إلى الغلو والمبالغة ، على أنه يحاول أن يرتفع فى بعضها إلى مقام التأكيد ، وذلك ليثبت إحرازه قصب السبق فى ميادين الشجاعة والمغامرة ، وهذا معنى كم كان يحلو للعربى أن يزهى به ، ويردده فى عديد من قصائده التى تقوم على الفخر ، ولا عجب لأنها من المعانى التى كانت تعتد بها القبائل العربية ، فهى مركوزة فى طبعه ، موصولة بأعماقه ...

١١ — والتصوير فى القصيدة منتزع من بيئة العربى ، يعتمد فيه على مشاهده الملموسة ، ولسنا نرى صورة منه توغل فى الخيال أو تمعن فيه ، وإنك لتجد كثيراً من التشبيهات تلوح فى قصائده على نحو لافت ، من مثل قوله فى مطلع القصيدة ، « فأضحت ديارهم كالخلال » ، « وظباء كأنهن أباريق لجين » و : ذاك إذا أنت كالمهاة » و « العناجيج كالقداح من الشوحط » .

ومن مثل قوله كذلك :

ولقد أدخل الخباء على مهـ ضومة الكشح طفلة كالغزال

إلى غير ذلك :

ولم يقع فى القصيدة من مظاهر التصوير الأخرى سوى ألوان محدودة ضئيلة ، كقول « عبيد » .

١ — وصحا باطلى وأصبحت شيخا لا يوانى أمثالها أمثالى

وقوله :

٢ — عنتريس كأنها ذو وشوم أحرجته بالجو إحدى الليالى

ثم أبرى نحاضها فتراها ضامرا بعد بدنها كالهلال

فهى استعارات لا يعوزها إعمال فكر أوكد ذهن ، بل يتضح المراد منها فى أعقاب قراءتها أو الاستماع إليها ، وإذا كانت الصور الاستعارية قليلة فى القصيدة فإن الكناية هى الأخرى لم تتردد خلالها إلا على نحو وقع فى أضيق نطاق ، وتأمل قوله :

دردر الشباب والشعر الأسـ ـــود والراتكات تحت الرحال

كناية عن « الإبل النجائب »

ثم انظر قوله :

ولقد أقدم الخميس على الجر داء ذات الجـراء والتنقال

والتصوير أيا كان لونه أو شكله يقوم على العلاقة بين الشاعر والواقع الخارجى ، وهذه العلاقة إنما تبدو وثيقة الصلة بالواقع الخارجى إذا رفدها الذوق العام ، واستقت من نبع الحياة ودفقها ، وحيث أصاب هذه الصلة بعض الخلل الذى لايتجاوب مع الواقع أو يتعاطف مع الذوق كان تصويرا رديئا ، وقارن — على سبيل المثال لا الحصر — بين صور التشبيه التى وقعت لعبيد فى قصيدته وما أخذه النقاد على « النابغة » فى قوله .

نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العود(١)

على أن النقد العربى ما لبث بعد ذلك أن نظر إلى العلاقة بين المشبه ، والمشبه به فى الصورة نظرة فنية ، حيث نجد « العسكرى » فى كتابه « الصناعتين » يذكر قائلا :

« ومن ردىء التشبيه قول « ابن المعتز » .

أرى ليـلا من الشعر على شمس من الناس

الجمع بين الليل والناس ردىء وقد وقع ها هنا باردا(٢) .

---

(١) العمدة ١/٣٠١

(٢) الصناعتين لأبى هلال العسكرى ٢٦٥ .

وإذا جرت كتب البلاغة والنقد على ما للاستعارة من قيمة فى الصورة ، إذ تعطى « الكثير من المعانى باليسير من اللفظ ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر وتجنى من الغصن الواحد أنواعا من الثمر »(١)

فإن مما يرفع منزلتها أن تنهض بوظيفتها المنوطة بها فى إثراء المعنى وتألقه ، فأما إذا تعقد المعنى بتداخل الاستعارات بعضها فى بعض بحيث صارت تئود الصورة وتثقلها صارت « استعارة » لاجدوى منها ، حتى إن بعض النقاد القدامى ، وهو « قدامة بن جعفر » يقول : « لا أعرف المعاظلة إلا فاحش الاستعارة ، مثل قول « أوس » :

وذات هدم عار نواشرها تصمت بالماء تولبا جدعا *

فسمى الصبى « تولبا » والتولب « ولد الحمار » (٢)

وإذا كان هذا ملحظاً تعقبه النقاد بالرد والتفنيد فالذى أراه أن « الاستعارة » إذا خالفت الإلف فى العلاقة بين المستعار والمستعار له (المشبه والمشبه به) فان الكلام ينحط قدره بها ، ولعل هذا ما لحظه قدامة « حين سماها « معاظلة » فى البيت السابق .

١٢ — وأما المعجم الشعرى لعبيد ، فيتجلى من هذه القصيدة وقصائد أخرى فى ديوانه ، وتكشف هذه القصائد مجتمعة ، وتومئ إلى أن الشاعر ترددت بعض الكلمات التى استثمرها فى التعبير غير مرة ، مما يدل على شخصيته التى تتسم بطابع الاستقلال والتميز ، أو ليس الأسلوب هو الرجل كما يقولون : ولنأخذ على سبيل المثال تعبيره فى مستهل قصيدته بـ (الخلال) فى البيت الثالث ، فإن هذه اللفظة تكررت عنده فى أكثر من موضع ، كما نرى ذلك ماثلا فى القصيدة التى يبدؤها :

---

(١) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى ٤٧

* البيت فى ديوان « أوس بن حجر » ص ٥٥ تحقيق وشرح د. محمد يوسف نجم .

(٢) الصناعتين ١٦٩

أقفر من مية الدوافع من خبت فلبنى فيحان فالرجل(١)

والتى يتكلم فيها عن منازل حبيبته وكيف تغيرت بفعل السنين والأحداث .

كأن ما أبقت الروامس منه والسنون الذواهب الأول
فرع قضيم غلا صوانعه فى يمنى العباب أو خلل

وفى موضع آخر ترى كلمة « سبسب » عنده فى قصيدة أخرى ، وهى قصيدته الذائعة :

أقفر من أهله ملحوب فالقطبيات فالذنوب

حيث يقول :

فابصرت ثعلبا من ساعة ودونه سبسب جديب(١)

وقد كفانا مئونة هذا الثبت للألفاظ الدكتور « حسين نصار » فى مقدمة ديوان « عبيد » ورأى أن « الشاعر كان يميل إليها . (٢)

هذه تأملات فى القصيدة تلم بجوانبها وأبعادها .

---

(١) الديوان ٩٥ .

(٢) ديوان عبيد ١٩ والقصيدة من ص ١٠ – ٢٠

« امرؤ القيس »

فى

همومه وطموحه وذكرياته

— ٢ —

١ — سما لك شوق بعد ما كان أقصرا ‏ ‏ وحلت سليمى بطن قو فعرعرا
٢ — كنانية بانت وفي الصدر ودها ‏ ‏ مجاورة غسان، والحي يعمرا
٣ — بعيني ظعن الحي لما تحملوا ‏ ‏ لدى جانب الأفلاج من جنب تيمرا
٤ — فشبهتهم في الآل لما تكمشوا ‏ ‏ حدائق دوم أو سفينا مقيرا
٥ — أو المكرعات من نخيل ابن يامن ‏ ‏ دوين الصفا اللائي يلين المشقرا
٦ — سوامق جبار أثيث فروعه ‏ ‏ وعالين قنوانا من البسر أحمرا
٧ — حمته بنو الربداء من آل يامن ‏ ‏ بأسيافهم حتى أقر وأوقرا
٨ — وأرضى بني الربداء واعتم زهوه ‏ ‏ وأكمامه حتى إذا ما تهصرا
٩ — أطافت به جيلان عند قطاعه ‏ ‏ تردد فيه العين حتى تحيرا
١٠ — كأن دمى سقف على ظهر مرمر ‏ ‏ كسا مزبد الساجوم وشيا مصورا

• • •

١ — سما الشوق، من السمو: ارتفع وذهب كل مذهب، لبعد الأحبة، وأقصر: كف بسبب قرب الأحبة منه، وقو وعرعر: موضعان

٢ — كنانية: تنتسب لبني كنانة، وكنانة من مضر، أما غسان فمن اليمن، ويعمر من بني كنانة، يريد أنها تضرب في الترحال فتجاور «غسان» تارة، «يعمر» طورا.

٣ — الأفلاج: الأنهار واحدها: فلج، تيمر: موضع.

٤ — تكمشوا: اسرعوا السير، والدوم: شجر باليمن يطول ويرتفع في السماء، والمقير: وهو شيء أسود يطلى به السفن والإبل.

٥ ــ الكارعات : النخيل التى على الماء ، والمكرِعات من الإبل (بالكسر) اللواتى تدخل رؤوسها إلى الصلاء فتسود أعناقها ، والمكرَعات (بالفتح) : ماغرس فى الماء من النخيل وغيرها، وآل يامن : قوم من « هجر » إشارة إلى مااشتهر به من كثرة النخيل، والصفا والمشقر : قصران بناحية « اليمامة » .

٦ ــ صوامق : جمع : سامقة ، أى المرتفعة الطويلة ، والجبار بالفتح والضم : النخلة الطويلة الفتية ، والأثيث : الغزير يقول « امرؤ القيس » من معلقته .

وفرع يغشى المتن أسود فاحم أثيث ، كقنو النخلة المتعثكل(١)

والقنوان : العذوق ، قال تعالى :

« وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنابه نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية(٢)

والبسر : مااحمر من التمر :

٧ ــ آل يامن : تقدمت الإشارة إليهم ، وقيل : إنهم قوم من الحبشة وأقر : آل إلى هذه الحال من كمال الحمل ، فكان لذلك أبهى لمنظره والتطلع إليه ، وأوقر : حمل ، يقول الله تعالى .

« والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرا (٣) . . . إلخ »

٨ ــ الزهو : الأحمر والأصفر من البسر ، والزهو أيضا : اللون ، يقال : قد أزهت البسرة ، وقال « طفيل الغنوى » .

---

(١) الديوان ١٦ .

(٢) الأنعام (آية ٩٩)

(٣) الذاريات آية ١ و ٢

حقار تظل الطير تتبع زهوه ويخطفن أعلاقا على كل مقأم(١) »

والأكام هنا : أقماع البسر ، وفى سورة الرحمن جاء قوله تعالى « والنخل ذات الأكمام»(٢)، والأكمام فى الأصل :أغلفة الطلع عند خروجه من قلب النخلة ، وتهصر : تدلى وتثنى ، والهصر يعنى : الجذب والإمالة والإدناء وعطف شىء رطب كالغصن ونحوه ، ومنه: اهتصر النخلة : ذلل عذوقها وسواها .

٩ – « جيلان » قوم فى خدمة « كسرى » بجانب البحرين كان عملهم أن يصرموا له النخل ، وتردد فيه العين : تظل تنظر إليه لروائه ، وتقلب فيه الطرف حتى تكل وتتحير ، وذلك ما يتساوق مع الأبيات السابقة .

١٠ – الدمى : جمع : دمية : الصورة ،والسقف موضع أو دير بالشام به صور ، والساجوم: واد بعينه ، والمزبد : ذو الزبد ومما ورد فى سورة «الرعد» قوله تعالى : « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض(٣) » . ونميل إلى ماذكره الأستاذ (محمد أبو الفضل إبراهيم) فى أن هذا البيت له شابكة تجمعه وتربطه بالبيت : « فشبههم فى الآل لما تكمشوا » إلخ .هذا البيت ، واذن فتشبيه الظعائن على الإبل بما عليهم من وشى منمنم حال السير فى السراب بالدمى على ظهور الرخام بذلك الوادى المزبد مما يناسب هذا المقام ، وإنما جعل المرمر كالكاسى لهذا الوادى المزبد من قبيل تضمين المشبه به بعض صفات المشبه على سبيل التجوز

---

(١) كتاب الجيم ٢/٧٦

(٢) آية (١١)

(٣) آية (١٧)

والاتساع على حد ماجاء فى كلام « أبى تمام » وصفا للواء أبيض يخفق فى الهواء :

خلت عقابا بيضاء فى حجرا ت الملك خارت منه وفى سدده(١)

* * *

هذه الأبيات حديث هامس ، وجهه الشاعر إلى نفسه بعد أن خفق وجيب قلبه ، وغلبه الشوق ، وطغى عليه ، فقد أصبحت حبيبته بمنأى عنه ، وحق له أن يكون كذلك . فبالأمس القريب كان يحظى بالود والوصال منها ، فعاش وملء أعطافه السعادة والبهجة ، أما هو الآن فتباريح الهيام ذات سطوة عليه ، مع أنها تمت إلى قبيلة « بنى كنانة » ولكن ما أم القبيلة وشأنها بالعواطف ؟

أو إذا صح أن يدين العربى لقبيلته بالولاء والانصهار فينزل على أمرها ، أيقوى هذا الولاء على أن يحول العاطفة ، ويحيل الهوى .

ذاك مالا يكون .

ومن فرط تباريح الألم التى برحت بالشعر — من أجل الفراق — لاتكاد عيناه ترتد عن « ظعائن الحى » بعد التصميم على التنقل والترحال ، حيث شيعهم الشاعر بنظره ، وقد أخذت الرحلة وجهتها ، وممت نحو المكان الذى تود أن تبلغه ، وكأنى بالشريف الرضى يلهج بما أحس به « امرؤ القيس » وذلك حيث يقول :

وتلفتت عينى فمذ خفيت عنى الطلول تلفت القلب(*)

وفى أثناء هذا التسيار ، وبينما القافلة تجد فى السير خيل إلى الشاعر أن الألوان المختلفة التى تعلو الهوادج تمثل حدائق الدوم ، الباسق ، أو لعلها تمثلت له كالسقين الذى يمخر عباب البحر ، وقد طليت بالقار حين أو غلت

---

(١) أنظر الديوان (٩٥) بتصرف .

(*) فى رواية : فمذ خفيت عنها الطول .

راجع ديوان الشريف الرضى ١٤٥ ط : المطبعة الأدبية — بيروت .

القافلة فى الرحلة ، ولم يعد الشاعر يرى إلا شبحا يتحرك أمامه ، هو إلى الدكنة الشديدة أقرب ، وربما خيل إليه كذلك أن الذى يتحرك على مرمى البصر منه هو نخيل « ابن يامن » ، ذلك الملاح الذى كان مضرب المثل فى الإبحار بالسفن ، هنا وهناك ، وما ظنك بهذا النخيل؟ أنه يشد الأنظار إليه ويخطف البصر نحوه ، لأن النخلة فرعاء فارهة من جهة، ثم إن منظر البسر الأحمر وقد اعتجرت النخلة به منظر رائع معجب ، يملى على أصحابه والقائمين بأمره أن يتعهدوه ، فيضربوا حوله سياجا منيعا من الرعاية رغبة فيه ، وضنابه على من سواهم ، وظل النخيل بلونه وحسنه وروائه على هذه الصورة إلى أن تثنت أغصانه ، وتدلت فروعه ، حينئذ تهيأ خدم « كسرى » من هؤلاء الذين نيط بهم تعهد النخل ورعايته كى يصرموه ، وهالهم إبان ذلك مرأى النخيل ، وأخذوا يقلبون فيه أبصارهم حتى ارتد كليلا حسيرا . . وتعود صورة الأحبة الظاعنين تملأ خيال الشاعر فإذا به يتمثلهم مرة أخرى ، وقد انطلقوا بهوادجهم الموشاة فى السراب بدمى منقوشة على ظهر الرخام ترى فى هذا الوادى الذى يعلو زبده ، وقد كسا المرمر هذا الوادى .. وهكذا تثب الصور إلى ذهن الشاعر ، وتتوارد على خياله ، دلالة على أنه كان يعيش بكيانه وخواطره مع الركب الذى يجد هواه معهم .. أولا ترى إلى بعضهم يصور حاله فى قوله .

هواى مع الركب اليمانين مصعد جنيب وجثمانى بمكة موثق

وتلك صورة المحب الواله ، ينعم بالذكرى ، ويقضى فى واحتها الظليلة أروع لحظات العمر وأهنأ أوقات السعادة :

١١ – غرائرُ فى كن وصون ونعمة
يُحَلَّيْنَ ياقوتا وشَذْرا مُفَقَّرا
١٢ – وريحَ سَنا فى حُقَّةٍ حِميرَيّةٍ
تُخَصّ بمفروكٍ من المِسْك أذفرا

١٣ــ وباناً وألوياً من الهند ذاكيا
ورَنْداً ولُبْنى والكِبَاء المقتّرا

١٤ــ غَلِقْنَ برهن من حبيب به ادّعت
سليمى فأمسى حبلها قد تبترا

• • •

١١ ــ الغزائر . جمع ، غريرة ، الغافلة التى لاتجربة لها للرفه والصيانة، والكن: ما يكن به من الحر والبرد ، وفى القرآن الكريم من سورة « النحل » « وجعل لكم من الجبال أكنانا ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر ، وسرابيل تقيكم بأسكم »(١)

والشذر : جمع شذرة : قطعة الذهب ، أو اللؤلؤة الصغيرة ، والمفقر : الذى صيغ على هيئة فقار الجرادة .

١٢ ــ السنا ، لون من الطيب ، والسنا كذلك ضوء النار (مقصور) ، يقول الشاعر :

أيها الموقدان شبا سناها إن للضيف طار فى وتلادى(٢)

والأول هو المراد ، والحقة ، وعاء من خشب ، والحقة الحميرية ، المنسوبة إلى « حمير » حيث كان أكثر ملوك العرب ، ومن ثم خصها بالذكر لبيان مزيتها على ما سواها .. ألا تراه يقول فى الشطر الثانى « تخص بمفروك من المسك أذفرا » والمفروك ، المسك المنتشر الرائحة ، والاذفر : القوى الرائحة .

١٣ ــ البان ، جمع بانة : نوع من الشجر ، والألوى ، أجود العود وأطيبه، والرند: شجر طيب الرائحة، واللبنى : ضرب من الطيب، والكباء :

(١) الآية ٨١ .

(٢) الشعراء والشعراء١/٤٦٢

كل ما يتبخر به (عود البخور أو ضرب منه) ، والمقتر ، المدخن عند ملامسة النار له .

١٤ – غلقن برهن ، يقال : غلق الرهن كفرح ، استحقه المرتهن ، وذلك إذا لم يفك فى الوقت المشروط ، والمراد ، استولين على قلبه وملكنه ، وهو مثل أصله أن الرجل فى الجاهلية كان إذا أخذ رهنا إلى أجل فحان قبل أن يؤدى ما عليه فاز به وصار فى حوزته، وتبتر الحبل ، تقطع ، وأمسى حبلها قد تبتر ، المقصود بانت عنه بعد أن سيطرت على شغاف قلبه ، ودبت القطيعة بينهما .

* * *

ويعود (امرؤ القيس) يسترجع الذكريات مع الغيد الحسان ، اللائى عشن فى بلهنية من العيش الرغيد ، فلم يكن لهن خبرة بالحياة ولا معرفة بما يجرى على مسرحها ويسودها من تيارات ، من شأنها أن تصقل المرء ، وأن تحدد موقفه من شئونها .. وما طنك بامرأة تستمتع بكل ألوان المفاتن من الزينة بالجواهر الكريمة إلى العطر الذى يعبق على نحو لا يوجد إلا عند السراة والأمراء إلى الرائحة الزكية التى تملأ الحوانح والأعضاء وكأن هذه الرائحة رائحة البان وما يوجد عند الهنود من ألوى، وغيره كل هذا أوقع (امرأ القيس) فى حبائل هؤلاء الأوانس ، فهل يملك إزاء ذلك أن يفر من الذكرى أو يطرد شبحها عن وعيه ومخيلته . وكأنى بامرىء القيس يهتف من سويداء قلبه بما جرى على ألسنة الشعراء فيما بعد .

هل أنت من حر الصبابة منقذى أو أنت من شكوى الصبابة عائدى ؟
شوق تلبس بالفؤاد دخيله والشوق يسرع فى الفؤاد الواجد(١)

* * *

(١) الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى ٢/١٢٤

كل ما يتبخر به (عود البخور أو ضرب منه) ، والمقتر ، المدخن عند ملامسة النار له .

١٤ – غلقن برهن ، يقال : غلق الرهن كفرح ، استحقه المرتهن ، وذلك إذا لم يفك فى الوقت المشروط ، والمراد ، استولين على قلبه وملكنه ، وهو مثل أصله أن الرجل فى الجاهلية كان إذا أخذ رهنا إلى أجل فحان قبل أن يؤدى ما عليه فاز به وصار فى حوزته ، وتبتر الحبل ، تقطع ، وأمسى حبلها قد تبتر ، المقصود بانت عنه بعد أن سيطرت على شغاف قلبه ، ودبت القطيعة بينهما .

• • •

وبعود (امرؤ القيس) يسترجع الذكريات مع الغيد الحسان ، اللاتى عشن فى بلهنية من العيش الرغيد ، فلم يكن لهن خبرة بالحياة ولا معرفة بما يجرى على مسرحها ويسودها من تيارات ، من شأنها أن تصقل المرء ، وأن تحدد موقفه من شئونها .. وما ظنك بامرأة تستمتع بكل ألوان المفاتن من الزينة بالجواهر الكريمة إلى العطر الذى يعبق على نحو لا يوجد إلا عند السراة والأمراء إلى الرائحة الزكية التى تملأ الحوانح والأعضاء وكأن هذه الرائحة رائحة البان وما يوجد عند الهنود من ألوى ، وغيره كل هذا أوقع (امرأ القيس) فى حبائل هؤلاء الأوانس ، فهل يملك إزاء ذلك أن يفر من الذكرى أو يطرد شبحها عن وعيه ومخيلته . وكأنى بامرىء القيس يهتف من سويداء قلبه بما جرى على ألسنة الشعراء فيما بعد .

هل أنت من حر الصبابة منقذى أو أنت من شكوى الصبابة عائدى ؟
شوق تلبس بالفؤاد دخيله والشوق يسرع فى الفؤاد الواجد(١)

• • •

(١) الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى ٢/١٢٤

١٥ ـ وكان لها في سالف الدّهرِ خلّةٌ
يسارق بالطرف الخباء المستّرا
١٦ ـ إذا نال منها نظرةً ريعَ قلبه
كما ذُعرت كأسُ الصبوح المخمرا
١٧ ـ نزيفٌ إذا قامت لوجه تمايلت
تُراشي الفؤادَ الرخصَ ألا تَخَتّرا
١٨ ـ أأسماءُ أمسى ودها قد تغيرا
سنبدل إن أبدلت بالود آخرا

* * *

١٥ ـ الخلة : الصداقة والمراد : الخليل والصديق والحبيب ، ويسارق بالطرف : يختلس هذا الخليل النظر ، والمستّر : كثير الأستار إما لأن خباءها جعلوه وسطا حيث حلت « سليمى » منهم منزلة مرموقة ، فتحلقت أخبيتهم حول خبائها فعدت كثيرة الأستار ، أو لأن أستارخبائها بالفعل كانت كثيرة .

١٦ ـ الروع ، الفزع ، وفى القرآن الكريم « فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط »(١) ويعنى بالروع هنا : وجيب قلبه وخفقاته ، والصبوح : الخمر تشرب فى الصباح .

قال « الأخطل » :

أناخوا فجروا شاصيات كأنها رجال من السودان لم يتسربلوا
فقلت : اصبحونى لاأبا لأبيكم وما وضعوا الأثقال إلا ليفعلوا
يدب دبيبا فى العظام كأنه دبيب نمال فى نقا يتهيل(٢)

والمخمر : الثمل ، وفى البيت تشبيه كما نرى ، شبه « امرؤ القيس » فيه جزعه عند النظر إليها بجزع المخمر الذى تذهب نفسه حسرات على الكأس أمامه لم يتناولها ، وهى أثيرة إلى نفسه .

(١) سورة هود « آية ٧٤ »
(٢) الشعر والشعراء ١/٤٠٤

١٧ – نزيف. من نزف السكر عقله بالسكر ، أو هو الذى عطش حتى يبست عروقه وجف لسانه ، أو المحموم ، ومما جاء من شعر «عمر بن أبى ربيعة» وينسب لغيره .

فقعدت مرتقبا ألم ببيتها حتى ولجت به خفى المولج
قالت: وعيش أبى وحرمة إخوتى لأنبهن الحى إن لم تخرج
فخرجت خوف يمينها فتبسمت فعلمت أن يمينها لم تحرج
فلثمت فاها آخذا بقرونها شرب النزيف ببرد ماء الحشرج (١)

والمنزف : المضنى ، وقد أنزف : افنى ، يقول «المخبل» :

حتى إذا مال النهار وأنزفت عينى الدموع ، وقلت أى مزاد(٢)

ولوجه : لأمر بدا لها أن تفعله فتوجهت إليه ، وتراشى : تعطيه الرشوة ، والتخثر : الفتور والكسل .

١٨ – سنبدل أن أبدلت بالود آخرا ، معناه أنه مقيم على هواها ما أقامت عليه ، فإذا عن لها أن تزمع على قطيعته والبعد عنه لرحيله أو غربته فلا عليه من سبيل فى أن يهوى غيرها .

* * *

وفى الأبيات حنين إلى الأيام الخوالى ، ورغبة مودودة فى أن تعود صاحبته إلى ما كانت عليه من حفاظ على الود ، ومراعاة للعهد ، وأين منه هذه الأيام المواضى حين كان يختلس النظر إلى خبائها ، أملا فى إطفاء غلة الشوق عنده ، ولكم حاول الوصول إلى خبائها ، حتى إذا خالسها النظرة أحس بوجيب قلبه يتصاعد ، واستشعر كما لو أراد قلبه أن يثب بين ضلوعه ، وهذه النظرة الخالسة سهم أصاب مشاعره بالحذر ، وكم كان لتثنيها فى مشيتها وقع على نفسه .

إذا قامت لحاجتها تثنت كأن عظامها من خيزران

(١) أنظر ديوان «عمر بن أبى ربيعة ٤٢٩ ومابعدها ، وراجعها كذلك فى (ديوان جميل) ص ٤١ جمع وتحقيق د. حسين نصار .

(٢) كتاب الجيم ٢٨٣/٣

ولكنها مع ذلك تمضي إلى الأمر الذى توجهت إليه فى خفة ونشاط ، فلا سبيل لكسل أو فتور وتوان .... وفى ترقب من تهجس نفسه بالمخاوف من الأيام خشى أن تنساه صاحبته فقد يغيب عنها لما عسى أن يؤمل فيه النجاح والأوبة الحميدة . ولئن دفعها مضيه لما تأهب له إلى التحول عنه والعدوان على العلاقة بينهما بما يغير منها فإن ذلك بعينه ينهض لأن يكون سببا فى أن يتحول هو الآخر عنها ... فواحدة بواحدة ، والبادى أظلم .

١٩ — تذكرتَ أهلى الصالحين وقد أتت
على خَمَلَى خوصُ الركاب وأوْجَرا

٢٠ — فلما بدت حَوْرَانُ فى الآل دونها
نظرتَ فلم تنظر بعينيك منظرا

٢١ — تقطع أسبابُ اللبانةِ والهوى
عشية جاوزنا حَماة وشَيْزَرا

٢٢ — بسير يضج العود منه يَمنُه
أخو الجَهد لايلوى على من تعذرا

٢٣ — ولم يُنسنى ما قد لقيت ظعائنا
وَخمْلا لها كالقَرِّ يوما مخدَّراً

٢٤ — كأثلٍ من الأعراسِ من دونِ بيشةٍ
ودون الغُمير عامداتٍ لغضورَا

* * *

١٩ — خوص الركاب : جمع واحده : أخوص ، أوخوصاء : الغائر العين ، وخملى وأوجر : موضعان قبل الشام .

٢٠ — حوران : مدينة بالشام ، والآل : منتصف النهار ، فلم تنظر بعينيك مظرا يعنى كأنما كانت هناك ضبابية كثيفة حجبت عنه الرؤية وذلك حيث لم ير صاحبته .

٢١ — حماة وشيزر : موضعان فى ناحية الشام ، واللبانة : الحاجة يقول « لبيد بن ربيعة » :

فاقطع لبانة من تعرض وصله ولشر واصل خلة صرامها (١)

٢٢ – يضج العود منه : يشتكى ، وعنه : يضعفه ويذهب بمنته ، وأخو الجهد الذى يجهد نفسه فى سيره ، ولا يلوى على من تعذ ا : لايمكث أو يترقب من اعتراه عذر ، والمراد : أنهم يسيرون على عجل ؟

٢٣ – ما قد لقيت : أى من وعثاء السفر ، ومكابدة المشقة ، والظعائن جمع ظعينة : المرأة فى الهودج ، والخمل : ريش النعام ، يقول « رؤبة ابن العجاج » :

وكل زجاج سخام الخمل بترى له فى زعلات خطل (٢)

والقر : من مراكب النساء على الإبل ، ومخدراً : كأنه الخدر أو الهودج .

٢٤ – الأثل : نوع من الشجر يشبه الطرفاء إلا أنه أعظم منها ، قال تعالى من سورة « سبأ » : « وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل (٣) » ، والأعراض : جمع عرض : الوادى . ويبشه والغمير ، وعضور : مواضع فيها ماء .

* * *

أوغل الشاعر فى رحلته ، وأسلمه مكان إلى مكان ، وجد نفسه فيه غريباً وظل يضرب عصا التسيار ، وهنا استعرض ساكنى هذه الأماكن ممن كانوا يمتون له بصلة ، وما إن بدت « حوران » حتى انتابه ما انتابه من الهموم والآلام ؛ التى حجبت عنه الرؤية فالمرائى أمامه أطياف والمشاهد أشباح . .

---

(١) ديوان لبيد بن ربيعة ٢٠٣ تحقيق وتقديم د احسان عباس الكويت ١٩٦٣
وفى البيت رواية وخير واصل خلة صرامها

(٢) الشعر والشعراء / ٥٩٧

(٣) الآية ١٦ .

ويبدو أن إحساس الشاعر ، وهو يعرج على هذه الأماكن أفقده الثقة فى وصال من يهوى من صواحبه ، إذ كيف السبيل إلى الوصل ؟ ولو أن العودة سهلة ميسورة لكانت أمنيته فى الوصال مرجوة أو قائمة ، أما والعودة فى هذه الأثناء أصبح دونها خرط القتاد — كما يقولون — فخير له ألا يعلل النفس بالظفر بهواها مرة أخرى ، على أن معاناته الجاهدة فى السير حملته على ألا يتربث لحظة ، كى ينتظر من تخلف عن رفقته ، مهما تكن الأعذار ، ومع ذلك كله يداعبه الهوى الجامح فيتذكر الظعائن وقد فارقته فى أماكن بعينها ما تزال ماثلة نصب عينيه .

٢٥ — فدع ذا وسل الهم عنك بجسرة
ذمول إذا صام النهار وهجرا

٢٦ — يقطع غيطانا كأن متونها
إذا أظهرت تكسى ملاء منشرا

٢٧ — بعيدة بين المنكبين كأنها
ترى عنده جرى الضمر هراه مشجرا

٢٨ — تطاير ظران الحصى بمناسم
صلاب العجى ملثومها غير أمعرا

٢٩ — كأن الحصى من خلفها وأمامها
إذا نجلته رجلها خذف أعسرا

٣٠ — كأن صليل المرو حين تطيره
صليل زيوف ينتقدن بعبقرا

* * *

٢٥ — دع ذا : اتركه ، والجسرة : الناقة النشيطة الجسور على السير

والأهوال ، والذمول : التى تسير سيراً سريعاً ، وصام النهار قام واعتدل ، وهجر : اشتد حره ومنه الهاجرة .

٢٦ ــ الغيطان : جمع واحده : غائط : المكان المطمئن من الأرض ومن الآيات القرآنية « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا ، وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً (١) » .

والمتون : ما ارتفع من الأرض ، والملاء : جمع ملاءة ، وهى معروفة .

٢٧ ــ المنكبين : مثنى : منكب : مجتمع رأس الكتف والعضد ، والضفر : حبل مفتول والمشجر : المربوط .

٢٨ ــ ظران الحصى : الطويل ، والعريض المحدد ، وهو (ظران) جمع ، واحده : ظرر ، والمنسم : خف البعير ، والعجى : عصيب فى اليدين والرجلين ، والعجاية عصية فى الوظيف ، وتجمع على (العجى) كما فى اللسان ، يقول « رياح » .

تخدى على صم العجى سباط (٢)

والأمعر : الذى قد ذهب شعره

٢٩ ــ نجلته : رقته ورمت به ، والخذف : الرمى بالحصى ونحوها تخذف به أو بمخذفة من خشب ، والأعسر : من يرمى بيده اليسرى وفى تخصيصه « الأعسر » بالذكر إشارة إلى ما تفعل ناقته بالحصى حيث يتفرق لا فى اتجاه واحد مستقيم بل فى اتجاهات عديده كما يفعل « الأعسر » .

---

(١) الآية ٤٣ سورة النساء .

(٢) كتاب الخيل / ٢٣٣٦

٣٠ – المرو : حجارة بيض براقة أو أصلب الحجارة ، والزيوف : الرديئة ، واحدها زائف وزيف ، وخص (الزيوف) بالذكر لشدة صوتها الذى ينجم عما فيها من نحاس ، وعبقر : موضع باليمن ، والذى يبدو أن دراهمه كانت زيوفا .

* * *

ولكن ماله وتباريح الهوى ! ! فليترك ذلك جانباً ولتكن سلواه رفيقته التى تشركه الآلام والآمال : أليس تأملها داعيا إلى اطراح خواطره وتمثلاته ، فما أشد صلابتها ، وما أعجب انطلاقها ،وسيان عندها أن تسير فى وقت القيلولة أو غيره ، لا يثنيها عن مرادها شىء تدفعها النجاد إلى الوهاد ، فإذا ما أظهرت ، عكس توهج الحر عليها ما يشبه الملاحف البيض ، وليس عجيباً أن تكون كذلك من القوة والدءوب ، إذ لها من المتانة واستواء الخلق وتمامه ما يعينها على المضى دون توقف أو كلال .

ولشد ما يهول الرائى منظرها ، وهى تضرب الأرض بمناسمها فيتفرق الحصى فى كل ناحية ،وكأنها تنقده كالصيرفى الحاذق الخبير على ما يروى فى البيت :

تنفى يداها الحصى فى كل هاجرة ٭ نفى الدراهم تنقاد الصياريف

أوكأنها الأعسر يعمد إلى « الحصى » يريد أن يرميها فلا يستقيم رميه فى اتجاه واحد .

٣١ – عليها فتى لم تحمل الأرض مثله	أبرّ بميثاق وأوفى وأصبرا
٣٢ – هو المنزِلُ الآلاف من جوّ ناعطٍ	بنى أسدٍ حَزْنا من الأرض أوعرا
٣٣ – ولو شاء كان الغزوُ من أرض حِمير	ولكنه عَمداً إلى الروم أنفرا
٣٤ – بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه	وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
٣٥ – فقلت له لا تبكِ عينُك إنما	نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا
٣٦ – إنى زعيم إن رجعتُ مملكا	بسير ترى منه الفُرانِقَ أزورا

٣٧ـ على لا حب لا يهتدى بمناره ... إذاسافه العود النباطى جرجرا
٣٨ـ على كل مقصوص الذنابى معاود ... يريد السرى بالليل من خيل بربرا
٣٩ـ أقب كسرحان الغضى متمطر ... ترى الماء من أعطافه قد تحدرا
٤٠ـ إذا زعته من جانبيه كليهما ... مشى الهيد بى فى دفه ثم فرفرا
٤١ـ إذا قلت روحنا أرن فرانق ... على جاعد واهى الاباجل أبترا

٣١ ـ عليها فتى : يريد : نفسه

٣٢ ـ ناعط : حصن بأرض حمدان ، و « جو » أرض باليمامة ، والحزن : بفتح الحاء وسكون الزاى : ما غلظ من الأرض وكذا الحزم كما قال « أبو يوسف يعقوب بن السكيت » (١) .
يقول « عامر بن الطفيل » :

وما الأرض إلا قيس عيلان، أهلها ... لهم ساحتاها : سهلها وحزومها(٢)

والوعر : ضد السهل ، وفى البيت كما نرى حدة ووعيد .

٣٣ ـ أنفر : ذهب يستنصر به : ويعنى أرض حمير : قومه من اليمن

٣٤ ـ صاحبى : يريد به الشاعر « عمرو بن قميئة » وهو من بنى يشكر ، سأل (امرؤ القيس) عمن فى هذه الديار من الشعراء ، فأجيب بأن « ابن قميئة » من شعرائهم ، ثم دعا به واستنشده الشعر ، وراقه ما قال ، مما حدا به إلى أن يستصحبه معه فى الرحلة إلى « قيصر » وكان بكاء « ابن قميئة » بعد أن وقف على مضيه إلى « قيصر » وجاوز بلاد العرب والدوب : الحد الذى يقع بين بلاد العرب والعجم .

٣٥ ـ فقلت له لاتبك عينك : يريد تذرع بالصبر حتى تنال بغيتنا لدى

---

(١) الإبدال ٨١ تقديم وتحقيق د. حسين محمد شرف
(٢) الشعر والشعراء ١ ـ ٢٣٥

« قيصر » ، أو يحين الأجل فلا يعذلهما أحد ، إذ لم يفرطا أو يتهاونا فى الطلب .

٣٦ ــ الزعيم : الضامن الكفيل ، جاء فى سورة « يوسف » قوله تعالى : « قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير ، وأنابه زعيم » (١) والفرانق : الأسد والذى ينفر قدامه ، والذى يدل صاحب البريد على الطريق (معرب) ، والمعنيان الأخيران هما المقصودان ، والأزور : الذى يميل فى سيره إلى جانب .

٣٧ ــ اللاحب : الطريق الواضحة ، وسمى كذلك لأن الحوافر لحبته ، أى أثرت فيه ، فصار ذا طرائق بينة ، وهو « فاعل » بمعنى « مفعول » وسافه العود : أى شمه المسن من الابل ، والعود النباطى : المنسوب إلى النبيط ، ويتصف بالجلد والقوة ، وجرجر : رغا وصوت .

٣٨ ــ الذنابى : أى الذنب (بفتح النون) ، ويقال فيه : ذنابى ، وذنبى بضمهما وذنى بكسر الدال ، واستعملت خيل البريد مقصوصة الذنب ، والسرى : السير ليلا ، والمراد : السير مطلقا ، ومعاود بريد السرى : عاود نفس السير الذى دأب عليه ، وإنما خص بالذكر خيل « بربر » لأنها منتقاة تنفرد بالصلابة والجودة .

٣٩ ــ أقب : القبب : دقة الخصر وضمور البطن ، والسرحان (بكسر السين) : الذئب ، والغضى : شجر : مفرده : غضاة ، والمتمطر : يقال : مطر الرجل فى الأرض وتمطر : ذهب ومطر الفرس مطورا : أسرع ، وأعطاف : واحده : عطف : جانب يقول تعالى من سورة الحج : « ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله ، له فى الدنيا خزى ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق » (٢) .

والماء : العرق .

---

(١) آية ٧٢ (٢) آية ٩

٤٠ ــ الزوع : الجذب باللجام ، وتهيج الفرس : تحريكه ليزيد فى سيره ، قال الشاعر :

وقلت لندمانى زوعا هديتما صدور المطايا أشرفا فتأنسا(١)

والهيدبى : مشية فيها خيلاء وتبختر ، والدف : الجنب ، قال الطرماح :

مقلصة طارت قرينتها بها إلى سلم فى دف عوجاء دافر(٢)

وفرفر : حرك اللجام فى فمه .

٤١ ــ أرن : رجع صوته بالغناء : « والفرانق » راجع معناها فى البيت (٣٦) ، والجلعد : الشديد فى غلظة ، واهى الأباجل : لين العروق والمفاصل ، والأباجل عروق فى الرجل ، واحداها أبجل ؛ والأبتر : المقطوع الذنب .

* * *

ويذهب (امرؤ القيس) فى هذه الأبيات إلى الزهو بنفسه ، والإشادة بصفاته من الوفاء والجلد والمهرة والشجاعة ، وأين منه من يتصف بكل هذه المزايا فى دنيا الناس ؟

وإذا كانت « الشجاعة » إحدى صفاته فإنه فى الغد القريب سوف ينزل « بنى أسد » أعداءه منزلا خشناً ، ويحملهم على المركب الصعب الذى لا حيد لهم أمامه ، إذ كيف يترك أعداءه وهو موتور منهم لو شاء أن يغير عليهم بقومه من اليمن ، دون أن يستنجد بقيصر لفعل ، ولكنه فعل ذلك قصداً فتوجهه إلى (قيصر) لا يعدو أن يكون بمثابة المبالغة فى إذلالهم . ونكاية فى التنكيل بهم ، وفيما هو فى تلك الرحلة يقطع الطريق بلداً تلو آخر إذا بصاحبه الذى رافقه ينظر إلى بلاد العرب فيجدها قد غابت عن أنظاره فيذرف الدموع السواخن ، لحنينه الذى شده إلى أرضه وقومه ، ويهدهد (امرؤ القيس) مشاعره ، ويرغب إليه فى أن يمضى إلى مهمته بعزم قوى ، فإن العظائم كفؤها العظماء ، فإذا بلغا الغاية التى ينشدانها فلا عليهما ، أما إذا حال الموت دونهما فلهما العذر ، فحسبهما الأخذ بالأسباب والعزم الأكيد

---

(١) كتاب الجيم ٢ــ٦٨ (٢) الشعر والشعراء ١ــ١٤٧

ويحاول « امرؤ القيس » أن يخفف من لوعة صاحبه ، حيث يذكر له أنه قدر لهما العودة فسوف لايألو جهداً فى أن يقطع المسافة بسرعة خاطفة وما له لايفعل ، والآمال تحدوه لساعتها فى عودته متوجاً على قومه ، يتولى إمارتهم ، هو ضامن له العود الأحمد ، والوسائل إلى ذلك موفورة ؛ فالطريق التى يسلكانها مأمونة المغبة إذ هى خلاء من كل ما يعترض سبيلهما ، والفرس مسومة معلمة ألفت السير السريع وخبرت الطريق ، بدليل ما فيها من قبب وضمور ، يضمن لها السبق والبلوغ إلى الديار حثيثة ، يسيل عرقها من فرط سرعتها ، ثم هى إلى ذلك تأبى إلا أن تختال فى مشيتها أحياناً ، إذا عمد من يركبها إلى أن يثنيها باللجام عندئذ تسير سير المختال ، وماهى إلا لحظات حتى تنطلق انطلاق السهم إلى رميته ، فإذا نال منهما الجهد منالا لم يكن بد من التسلية بالغناء والطرب . وهو شىء تسكن النفس إليه من لغوب ، وتأنس به من وحشة ، وهو مايطلب إلى الدليل عمله والقيام به .

٤٢ — لقد أنكرتنى بعلبك وأهلها
ولابن جريج فى قرى حمصَ أنكرا

٤٣ — تَشمُّ بروقَ المُزن أين مَصابُه
ولا شىء يَشفى منك يابنةَ عَمْرَا

٤٤ — من القاصرات الطرف لو دب محول
من الذر فوقَ الإتب منها لأثرا

٤٥ — نه الويل أن أمسى ولا أمُّ هاشم
قريبٌ ولا البَسّاسة ابنةُ يشكرا

٤٦ — أرى أمَّ عمرو دمعها قد تحدرا
بكاء على عمرو وما كان أصبرا

٤٧ — إذا نحن سِرْنا خمس عشرة ليلة
وراء الحساء من مدافع قيصرا

٤٨ – إذا قلت هذا صاحب قد رضيته
وقرت به العينان بدلت آخرا

٤٩ – كذلك جدى ما أصاحب صاحبا
من الناس إلا خانني وتغيرا

٥٠ – وكنا أناسا قبل غزوة قُرْملٍ
ورثنا الغنى والمجد أكبرَ أكبرا

٥١ – وما جُبْنَتْ خيلي ولكن تذكرت
مرابطها من بربعيص وميسرا

٥٢ – ألا رب يوم صالح قد شهدته
بتاذف ذات التل من فوق طرطرا

٥٣ – ولا مثلَ يوم في قُذارانَ ظلته
كأني وأصحابي على قَرْن أعفرا

٥٤ – ونشرب حتى نحسب الخيلَ حولنا
نِقادا ، وحتى نحسب الجون أشقرا (١)

• • •

٤٢ – بعلبك : قرية بالشام بين دمشق وحمص .. ولابن جريج .. إلخ : اللام للتوكيد : ويريد أنه هو الآخر أنكرته بعلبك ، والشاعر إنما يصف حالته وقد ابتعد عن أهله وديارهإذلم يرما يتكيف به أو يتعاطف معه .

٤٣ – المزن : السحاب أو أبيضه ، أو السحاب ذو الماء ، مصابه . مكان وقوعه ومصبه ولاشيء د... إلخ . والبيت يريد أنه لا عوض مما يجد في نفسه غير الشوق إلى « ابنة عفزر » .

---

(١) من ديوان « امرئ القيس ٥٦ – ٧١

٤٤ ــ القاصرات الطرف : المنحبيات إلى أزواجهن ، وفى سورة « الرحمن » : «فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان(١) أى اللاتى يقصرن نظرهن على أزواجهن، وتلك غاية التعفف ، والمحول : الذى أتى عليه الحول ، والإتب : ثوب رقيق له جيب وليس له كمان .

٤٥ ــ له الويل : يعنى لنفسه الويل ، وأم هاشم ، والبسباسة ابنة يشكر ممن كان يكلف بهما الشاعر ويهيم .

٤٦ ــ أم عمرو التى يعنيها : أم « عمرو بن قميئة » صاحبه ، وفى وصفه إياها بما يدل على البكاء إشارة إلى أن السفر بعيد موغل جلب عليها الآلام لابتعاد « عمرو » عنها ، وما كان أصبرا : أى ما كان أصبرها قبل أن يرحل عنها « عمرو » ابنها .

٤٧ ــ الحساء : جمع حسى ، بكسر أوله وسكون ثانيه : ماء يغور فى الرمل فلا يذهب بعيداً لصلابة ماتحته، ومدافع قيصر : أعماله وما يتصل ببلاده مما من شأنه أن يدفع عنه ويصونه .

٤٨ ــ البيت كله بيان لما أضناه من قسوة الأيام ، إذ تجهم له الناس ، فما من إنسان يتخذه خليلا أو صفيا إلا تنكر له ، مما دعاه إلى عدم الثقة الناس والأيام معاً ...

٤٩ ــ والجد : الحظ ، يقول الشاعر :

لعمرك ليس المال من حيلة الفتى ولكن أحاظ قسمت وجدود

والبيت يقوم مقام التعليل لما ذكره فى سابقة من معنى ..

٥٠ ــ قرمل : ملك من ملوك اليمن عدا على قوم امرىء القيس فبطش

---

(١) آية ٥٦

بهم وانتصر عليهم ، ويريد بقوله ، وكنا أنسا ... إلخ . أنه من أماجد الناس وأشرافهم من قديم ، فقد توارث الغنى والمجد ، ولئن كان قومه قد منوا بالهزيمة فى غزوة (قرمل) إن ذلك لاخور فى عزائمهم أو جبن فى هممهم ، والبيت الآتى اعتذار عن هزيمة قومه أمام « قرمل » .

٥١ — وما جبنت خيلى : أى فرسانها والمرابط : المواضع ، ومن بيانية : «بربعيص ، وميسر » موضعان .

٥٢ — تاذف وطرطر : موضعان صال على ساحاتهما « امرؤ القيس» وأحرز قصب الغلبة والفوز ، ولعله وصف اليوم بالصلاح ، نظراً لما نال فيه من نصرة .

٥٣ — وقداران : موضع وقعت فيه معركة انتصر فيها كذلك « امرؤ القيس » ، ومن هنا سمى اليوم الذى وقعت فيه بيوم «قداران» .

والأعفر : الظبى الأبيض يخالط بياضه حمرة ، ويفهم من قوله « كأنى وأصحابى على قرن أعفرا » أن هذا اليوم كان صعباً شديداً المراس ولولا حذره الشديد لكان من المحتمل هزيمته .

٥٤ — النقاد : غنم صغير أو هى جنس منها ، ومن شعر « لقيط ابن يعمر » .

سلام فى الصحيفة من لقيط ... إلى من بالجزيرة من إياد
بأن الليث كسرى قد أتاكم ... فلا يشغلكم سوق النقاد(١)

الواحدة (نقدة) وتجمع كذلك على « نقد » بفتح النون والقاف . والجون : الفرس الأسود ؛ ومراد ، بالبيت : أنه وأصحابه مازالوا يعبون

---

(١) ديوان لقيط بن يعمر ٣٥ وما بعدها ، تحقيق وتقديم د. عبد المعيد خان .

من الكئوس عبا حتى لم يمكنهم التمييز بين الأضداد، حيث أذهبت « حميا » الخمر عقولهم .

* * *

الأبيات الأخيرة تمثل الحالة النفسية التي اعتصرت الشاعر وصورت آلامه وهمومه ومطامحه، لقد كان يرغب في أن يحل من معارفه ومخالطيه محلا كريما يستشعر فيه الكرامة والإباء، ولكنه — من أسف — منى بصدمة عنيفة ، ومن كان ينتظر من « بعلبك » وأهلها أن تتنكر للشاعر ، فيضرب في أرجائها كما يضرب الغريب ، لا يعرف أحد ولا يعرفه أحد حتى هؤلاء الأوداء الأصفياء من رفاقه يشيحون عنه، ولم يكن ليتوقع منهم ما فرط في حقه من المهانة والضياع وربما كان ذلك مدعاة إلى أن يجد في رحاب الذكريات الحاشدة ما قد يخفف عنه هذه الحالة الممضة ، وماذا أمامه غير المزن يتطلع إليها ، ويشيعها بنظرته وهي تمر في ريث وإبطاء انتظاراً لما عسى أن يتدفق من جنباتها من ماء في مصبه وموقعه . ولكن أكل هذا مما يشبع رغائبه في الحياة ، ويجعله قرير العين بها ؟ ذاك ما لا يكون .

إن الذكريات الجاثمة على ذهنه لا تلبث أن تثب فتصور له صواحبه النواعم اللائي يتصفن بالبضاضة ورقة البشرة ، حتى أن النمل الصغير لو مر فوق ثوب الواحدة منهن لأثر فيها ذلك غاية التأثير ، فكيف — إذن — تستريح نفسه ويهدأ خاطره ، وصواحبه في معزل عنه ؟ ذلك ما يلقى بسببه الويل والثبور ، ثم مالأم « عمرو بن قميئة » تبكي ؟ ألأننا أرغلنا في بلاد الروم ، وأصبح « ابنها » بمنأى عنها ؟ وما العهد بها قبل ذلك أن تهمى دموعها فقد كانت معروفة بالجلد .

وإذا خطر لها أن تندب حظ ابنها من أجل ما كابد ، في تلك الرحلة ، أفليس أولى بالشاعر أن يكون أشد منها سخطا على الزمان وأهله ، هؤلاء الذين خدع فيهم وعاشروه على دخل وما أشد الفجيعة في الصاحب ، يركن إليه صديقه ويخلد ، ثم تكشف له الأيام عن السم الزعاف .

واخوان تخذ تهمو سهاما فكانوها ولكن فى فؤادى

وقد يكون وراء هذا الانفضاض وتلك الخيانة ما منينا به من هزيمة على يدى (قرمل) وهب أن هذا واقع نعيشه أفيقوى ذلك على أن يمحو ما خططناه فى صحائف الشرف والرفعة ، وهى صحائف لألاء ناصعة تشع بالبطولات الفارهة ، والمفاخر الكريمة ، أولا تذكر أعمال — أو إن شئت خوارق — صنعنا فيها الأعاجيب ، ثم كان لنا ما كان من متع أغرقتنا نعمت بها وأصحابى فى انطلاقة بريئة حتى الثمالة ، فهل ذلك كله يقابل بالجحود والنكران ؟

* * *

إطلالة على القصيدة

أما الشاعر فنابه الذكر ، مرموق المكانة فى عالم « الشعر » ترجم له « ابن قتيبة » فقال :

« امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر ، آكل المرار بن معاوية بن ثور » وأمه « فاطمة بنت ربيعة بن الحارث بن زهير » (١).

نشأ فى بلاد « نجد » حتى إذا أيفع سدر فى غلوائه على ديدن أبناء الملوك ، فلم يكن له من وسيلة يشبع فيها بطالته وفراغه سوى صهوات الخيل ، والنهم بالشراب ، والصبوة بالنساء ، وراح يقدم ميعة صباه وريعان شبابه قرباناً للخلاعة ، حتى لقد مله أبوه وعدل عما كان يرشحه له من الملك بعده ، حين طرده ... ومضى « امرؤ القيس » هائماً على وجهه ، يبالغ فى الأخذ من الحياة اللاهية مع من أعانه على ذلك من عوامل الدعة والتبطل .

أما أبوه فكانت قصته مع « بنى أسد » على نحو ما أشرنا إليه سلفاً فى الحديث عن « عبيد بن الأبرص » يسومهم الخسف والمهانة ، وغلت مراجل الغضب فى صدورهم ، وإن لم يكشفوا عن ذلك إلا فى اللحظة الحرجة ، ورحم الله الشاعر « هاشم الرفاعى » إذ يقول :

إن احتدام النار فى جوف الثرى ... أمر يثير حفيظة البركان
وتتابع القطرات ينزل بعده ... سيل يليه تمرد الفيضان
فيموج يبتلع الطغاة مزمجرا ... أقوى من الجبروت والسلطان (*)

وهكذا كان « بنو أسد » يترصدون « حجرا » إلى أن ضربوه

---

(١) الشعر والشعراء ١ — ١١٤

(*) راجع ديوان (هاشم الرفاعى) وقصيدة (رسالة فى ليلة التنفيذ)

ضربة أصابت منه مقتلا ، وكان قاتله « علباء بن الحارث الأسدى » ومن الطبيعى أن يأخذ « امرؤ القيس » أهبته للثأر من بنى أسد ، نزولا على ما ألفته القبائل العربية وتوارثته ، فأتى « ذاجدن الحميرى » فاستمده فأمده ، وبلغ الخبر بنى أسد فانتقلوا من منازلهم فنزلوا على قوم من بنى كنانة بن خزيمة والكنانيون لا يعلمون بمسير « امرئ القيس » إليهم فتفرقهم فى جند عظيم ، فأغار على الكنانيين وقتل منهم وهو يظن أنهم « بنو أسد » ثم تبين أنهم ليسوا هم فقال :

إلا يا لهف نفسى إثر قوم ... هم كانوا الشفاء فلم يصابوا
وقاهم جدهم ببنى أبيهم ... وبالأشقين ما كان العقاب
وأفلتهن علباء جريضا ... ولو أدركنه صفر الوطاب

ثم تبع « بنى أسد » فأدركهم ، وقتل فيهم قتلا ذريعاً وقال :

قولا لدودانَ : عبيدِ العصا ... ما غركم بالأسد الباسل
قد قرت العينان من وائل ... ومن بنى عمرو ومن كاهل
نطعنهم سلكى ومخلوجة ... كرك لأمين على نابل
حلت لى الخمر وكنت امرأ ... عن شربها فى شغل شاغل
فاليوم أشرب غير مستحقب ... إثماً من الله ولا واغل (١)

وكانت هناك موجدة لآل المنذر على ملوك « كندة » مما دفع « المنذر اللخمى » أحد ملوك الحيرة إلى طلبه ، وأعان (كسرى قباذ) أحد ملوك الفرس على طلبه ، وقد حمله هذا النزول على قبائل العرب ، يستنصرهم على أعدائه ، ثم ارتحل إلى بلاد الشام حيث توجه إلى قيصر الروم بالقسطنطينية ومعه « عمرو بن قميئة » أحد بنى قيس بن ثعلبة ، وكان من خدم أبيه فبكى « ابن قميئة » وقال له : غررت بنا فأنشأ « امرؤ القيس » يقول « بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه » (٢) وقد

(١) الشعر والشعراء ١/٢١٦ ، وانظر ديوان (امرى القيس) ١١٩ وما يليها .
(٢) ذاته ١/١١٨ .

أكرم وفادته (قيصر الروم) فأمده بالجند ثم بدا له بداء بما أمده به من جيش ضم أبناء الملوك .

ولسنا نود أن نفيض فى تفاصيل تتعلق بالترجمة عنه أكثر من ذلك فترجمته ضافية فى مظانها من أمهات كتب الأدب والتراجم ، بيد أن منهجية البحث تحدونا ألا ندع الحديث عنه مقصوراً فى شبه التراجم الذاتية؛ دون أن نعرض للقصيدة التى نحللها بالمسمات الناقدة فعن طريقها تبرز شخصية الشاعر ، ومن خلالها نستطيع أن نتصدى لبعض مقولات ربما كتب لها السيرورة عند نفر من الباحثين :

حاول الدكتور « طه حسين » أن يتحدث عن هذه القصيدة فقال :

منحولة هذه القصيدة الرائية الطويلة التى مطلعها .

سما لك شوق بعد ماكان أقصرا وحات سليمى بطن ظبي فعرعرا(١)

ويبنى الدكتور « طه » هذا الحكم على حيثيات مؤداها أن الأخبار أو الأشعار التى تمس تنقل « امرىء القيس » فى قبائل العرب منحولة هى الأخرى « حين تنافست القبائل العربية فى الإسلام، وحين أرادت كل قبيلة وكل حى أن تزعم لنفسها من الشرف والفضل أعظم حظ ممكن(٢) .

والواقع أن الدكتور (طه) إذ كان دافعه إلى الحكم على تلك الأخبار والأشعار ما ذكره « الأصفهانى » حول قصيدة قافية مطلعها :

طرقتك هند بعد طول تجنب وهنا ، ولم تك قبل ذلك تطرق

إذ ذكر أنها « قصيدة طويلة » وقال « وأظن أنها منحولة ، لأنها لاتشاكل كلام « امرىء القيس » والتوليد فيها بين ، وما دونها فى ديوانه أحد من الثقات ، وأحسبها مما صنعه (دارم) لأنه من ولد (السموءل) (٣)

---

(١) فى الأدب الجاهلى ٢٠١

(٢) نفسه ٢٠٠.

(٣) الأغانى ٩/٩٧ ط دار الكتب .

وكلام « الأصفهانى» يقوم على « الحدس » ، وعدم تدوين أحد من الثقاة لها — إن صح — لا ينهض دليلا على النحلُ ، فابن سلام وهو من الذين رادوا الطريق إلى النقد الموضوعى لم يدخل فى عداد طبقاته بعض شعر ء كفعله بالنسبة لدريد بن الصمة والكميت من الشعراء ، كذلك أغفل بعض القصائد بحجة أنه لم يسمعها فهل كل ذلك مما يصوب نظرته ؟

والجواب : لا فهناك من الدوافع والعوامل ما جعل « ابن سلام » يقف من الشعراء المذكورين وشعرهم هذا الموقف ، ولا نعنى بذلك شعراء الدولة العباسية ، وإنما نعنى شعراء عاشوا فى العصر الجاهلى وفى الإسلام ، ومع ذلك أغضى عن ذكرهم ، وأسدل عليهم الستار ، أفيكون كلام (ابن سلام) معتدا به ومقبولا على طول الخط ؟

وما كان لباحث أن يقيم رأيه على وهم أو ظن إلا حيث تسنده قرائن وأحوال ، وهب أن قصيدة (امرىء القيس) القافية منحولة على ما ذكره « الأصفهانى » أيشكك ذلك فى بقية القصائد لأن بها من الأخبار والأحداث ما جاء بالقافية ؟

على أن الشاعر ليس جغرافيا او رحالة يعنيه فى المقام الأول أن يرصد الأحداث رصد الفلكى النجوم، فإذا جاء شعره بمنأى عن الإسهاب فى هذه القضايا فلا عليه ، وأما دعوى الدكتور « طه » التى تتصل بما نحن فيه أن (امرأ القيس) شخصية وجدت حقاً وأثرت فى الشعر القصصى حقاً ، وكان تأثيره قوياً باقياً ، لكنهم لايعرفون من أمرها شيئاً يمكن الاطمئنان إليه ، وإنما ينظرون إلى هذه الأحاديث التى تروى عنه كما ينظرون إلى القصص والأساطير لا أكثر ولا أقل»(١) « فدعوى غيبية ، تقوض التراث ويمكن أن تنسحب على سواه ، بل أن انسحابها عليهم أمر لايكلف كبير عناء ولم لا ؟ وامرؤ القيس » بالنسبة إلى الآخرين من الشعراء أول من

---

(١) فى الأدب الجاهلى ١٩٩ .

خسف لهم عين الشعر ، ومع ذلك لايجد النصفة من الدكتور « طه » ومن شايعه ، فماذا يكون سائرهم حياله ؟

ولو أن منطق الدكتور « طه » يستند إلى بعض الأدلة القوية لما ترددنا في قبوله ، أما أن يأتي رأيه مبنيا على الافتراض والظن فذلك أمر ترفضه المنهجية الصحيحة في البحث .

ومما ينبغي ملاحظته أن الدكتور « طه » إذا كان قد شكك في هذه
ـيدة، فهو بذلك لايعدو أن يكون واحداً ممن يعتمد على بعض روايات
القص ويذكر « ابن سلام » في هذا الصدد مانصه :
قديمة ،
أول من جمع أشعار العرب ، وساق أحاديثها «حماد الراوية»
وكان ثوق بهوكان ينحل شعر الرجل غيره وينحله غير شعره ويزيد
وكان غير مو،
في الأشعار» (١)
إليه أن القصيدة لامرىء القيس لما سبق أن ذكرنا »
والذى نطمئن . ليه الأستاذ « محمد أبو الفضل إبراهيم » من جهة
مع جهة ؛ ولما نبه . مق فيها ديوانه .
أخرى إذ قال في مقدمة حـ

« ويمتاز شعر «امرىء القيـ ـس» في نسخة الأعلم بميزة لم توجد في بقية النسخ ، هي أنها رواية واضحة المعالم ، معروفة بالنسبة إلى الأصمعي » ثم يذكر أن دار الكتب المصرية بها نسختان من شرح دواوين الشعراء الستة ويعنى بهم : امرأ القيس — والنابغة الذبياني — وعلقمة بن عبدة — وزهير ابن أبي سلمى — وطرفة بن العبد — وعنترة بن شداد . ويضيف أن كلتا النسختين جاء في آخر شعر امرىء القيس فيهما :

« قال أبو حاتم ، هذا آخر ماصحح الأصمعي من شعر « امرىء القيس »

---

(١) طبقات فحول الشعراء ١/٤٨ .

والناس يحملون عليه شعراً كثيراً ، وليس له وإنما هو لصعاليك كانوا معه(١) :

ونعود بعد ذلك لنناقش بعض القضايا التى تتعلق بقصيدة الشاعر :

١ — لا يتردد من يتأمل قصيدة (امرىء القيس) فى الحكم عليها بأنها قصيدة تساير النمط العام لقصائد الشعر الجاهلى ، من حيث الاهتمام بذكر المرأة والناقة وما إليهما من معان كانت القصيدة الجاهلية غاية فى الاحتفاء بهما ، ولعل ذلك ما يواجهنا فى القصيدة عينها إذ تضمنت أبياتها عدداً سلط الأضواء على وصف الناقة ، فماذا يعنى الشاعر الجاهلى بذلك ؟

أصحيح أن ذكره « الناقة » كان لمجرد الوصف الذى يخلعه عليها من أنها جسرة ضامر .. الخ » وماذا فى ذلك من غناء ونفع ؟

ربما كان غرضه من ذلك أن يتناسى همومه التى أقضت مضجعه وأن يخفف من بلابله التى جثمت على صدره ، وهذا ماينطق به بيت « امرىء القيس » :

فدع ذا ، وسل الهم عنك بجسرة ذمول إذا صام النهار وهجرا

إنه الانفلات من موقف يستشعر فيه وطأة الضواغط إلى موقف آخر وقد يكون ذلك صحيحاً إلى حد ما ، باعتبار أن الناقة كانت نضواً سفاره ورفيق رحلاته ، فكيف إذن لا يوليها هذا الاحتفاء والاحتفال ، وشعره ذوب مشاعره ، ومن ثم نرى المشابه التى تجمع بين الشعراء تكاد تكون واحدة ، وكأنما كان التعرض لوصف الناقة متنفسا يرجون من ورائه أن يطرحوا آلامهم التى تطاردهم أنى ذهبوا وحيثما ارتحلوا ...

وبموازنة يسيرة تستطيع أن تضع يديك على تلك المشابه :

---

(١) انظر مقدمة ديوان « امرىء القيس » ص ٩ ومابعدها من التصدير .

هذا « علقمة بن عبدة » أحد شعراء الجاهليين يمدح « الحارث الغسانى » فيقول من قصيدة له :

طحابك قلب فى الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب
يكلفنى ليلى وقد شط وليها وعاد عواد بيننا وخطوب

ثم يتصدى فى هذه المقدمة الغزلية فيذكر :

فإن تسألونى بالنساء فإننى بصير بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله فليس له من ودهن نصيب
يردن ثراء المال حيث علمته وشرخ الشباب عندهن عجيب

حتى إذا انتهى إلى ذلك قال :

فدع ذا وسل الهم عنك بجسرة كهمك فيها بالرداف خبيب(١)

وهذا يكاد يؤكد منزع الشاعر الجاهلى فى إلمامه بأوصاف ناقته ، فضلا عما يضيفه من أمارة ترجح أن قصيدة (امرىء القيس) ليست منحولة أو موضوعة .

ويأبى أحد الباحثين المعاصرين إلا أن يلحظ وجهة أخرى يعزو إليها ظاهرة وصف النوق وما إليها فى الشعر العربى الجاهلى ، ولندعه يفصح عن وجهة نظره فى السطور الآتية :

« ومما يلفت انتباه الباحث أن يقترن ذكر المرأة فى أدب أيام العرب بالناقة والجمل والفرس ، وجميعها ترمز إلى الفناء الأبدى للبشرية ، فالبسوس خالة (جساس بن مرة) والسراب دفعها الى أصابها « كليب » ترمزان

---

(١) انظر القصيدة فى « ديوان علقمة الفحل ٣٣-٤٩ تحقيق الدكتور لطفى الصقال » وطالع تعليق الباحث عليها فى كتابه « فى رياض الأدب – الجزء الأول ص ٥ ومايليها » ط : دار التراث العربى بالقاهرة .

إلى ملحمة الموت الكبيرة التي دارت رحاها في قلب الجزيرة ورمزت بذلك إلى الفناء الأبدى المقدر على البشر .. وإن نحن بحثنا وراء هذا الرمز عن قصة أخرى من قصص أيام العرب هو يوم (البردان) حيث تخون « هند » زوجها « حجرا » جد « امرىء القيس » الشاعر ، وتخشى أن يلحق بها فيثأر منها ، فتخبر ملك الشام الذى أعجبها شبابه وفتوته بأن حجراً يجرى بجيوشه وراءهم مثل جمل هائج آكل مراراً (وهو شجر من الطعم) إذا نحن عرفنا ذلك أدركنا البعد الأسطورى من هذا الرمز وبالأخص إذا وجدنا التسمية قد سارت فى « حجر » فصار يعرف بحجر آكل المرار ، وعرف بها أهله ورجال مملكته أيضاً فيقال لهم « بنو آكل المرار » .

ويعلق الباحث على ذلك بقوله :

هذا هو الوجه التحليلى لفلسفة حياتهم ولا تغير هذه النظرة من الحقيقة الكونية شيئاً ، لأنهم على مدى الواقع الشعرى يعرفون كيف يعكسون الواقع الحيوى ، فتبدو القيم واضحة تماماً لأننا إذا قلنا إن المرأة كانت رمزاً للفناء يقترن بالناقة وكذلك القرى فمن قبيل أنهم ينتجون ويبتلع الفناء ، وهى الظاهرة المرئية الوحيدة وما سوى ذلك خالد ومقيم على حاله .

هذا هو المحتوى الفلسفى للقضية لكن الواقع المعاش يعكس احتضانهم لكل القيم الإنسانية وتقديسهم لكل ما هو قريب وعزيز ، لكن هذا الاحتضان وهذا التقديس خارج عن إرادة فى الخوف من المصير وهى إرادة ليست بذلك الوضوح (١) . . . . إلخ .

تمثل هذه النظرة مضى الكاتب يفلسف وجهة نظره فيما يبدو من اقتران المرأة بالناقة وما إليها فى الشعر العربى الجاهلى ، وواضح من تعليقه الأخير أنه لمس الحقيقة حيث أتى على معنى تقديس العرب لكل ما هو قريب

---

(١) مجلة (آفاق عربية) ص ٧٦ .

وعزيز ، وما ذكره من حروب شهيرة كان للمرأة فيها علامة مميزة على الفداء الذى انتهى إليه يمكن قبوله على صورته هذه ، ولكنه لا ينبغى أن يأخذ التعميم فى الحكم، فمعروف أن المرأة كانت من وراء الرجل تستحثه على أن يستبسل ويتفانى حينا ، وذلك مما يرفع مكانتها عند الرجل ، وأحيانا أخرى كانت تصول فى الميدان مع الرجل وقد اشتهر منهن نسوة كثيرات « فاللواتى اشتهرن فى الجاهلية بالشجاعة وشدة البطش أو قوة النفس منهن : « سلمى بنت عمرو إحدى نساء بنى عدى النجار » » » ناهيك بمن اشتهرن منهن بالبسالة فى الغزوات كذلك نبغ فى الرأى والحزم غير واحدة ، وكان للمرأة فى الجاهلية شأن فى الشعر والأدب وسائر العلوم(١) فكيف يتفق فى ذهنه أن تكون المرأة نذير الفناء إذا اقترن اسمها بالناقة والجمل والفرس ؟

أوليس من الاتساق فى الفكر والفهم معاً أن نقول — كما قررنا — ان هذا الاقتران دليل ناصع على ما يكنه العربى للمرأة من حب مقيم وتقدير بالغ ملأ عليه وجدانه، وكما كان ذلك محض شعوره بالنسبة إلى المرأة فكذلك كان موقفه من الفرس والناقة والجمل باعتبارها أمورا لا تنفك عن حياته فهى لازمة من لوازمه ، ونستأنس لذلك بما قالوه فى الخيل إعزازاً لها .

يقول « لبيد بن ربيعة » :

معاقلنا التى نأوى إليهـــا   بنات الأعوجية لا السيوف
حريمـا حين لم يمنع حريمـا   سيوفهم ولا الحجف الكثيف(٢)

وهذا أخو بنى عامر « يحذر قومه من إهمالهم خيولهم ، وعدم عنايتهم بترويضها وإعدادها فى كل آونة لخوض غمرات القتال .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ـ صرف ٣٨ .
(٢) ديوان لبيد (٢٥١) .

بنى عامر ماذا أرى الخيل أصبحت بطانا وبعض الضر للخيل أمثل
بنى عامر إن الخيول وقاية لأنفسكم والموت وقت مؤجل
أهينوا لها ما تكرمون وباشروا صيانتها والصون للخيل أمثل
متى تكرموها يكرم المرء نفسه وكل امرئ من قومه حيث ينزل

ولقد فضلها بعضهم على أولاده يجوعون ولا تجوع ، ولا بدع فهى التى تحمى الأسرة وتجلب لها الرزق ، وبها يدافع رب الأسرة عن عياله :

مفداة مكرمة علينا يجاع لها العيال ولا تجاع(١)

أفليس هذا كله مما يجعل حديث الشاعر عن « المرأة والحمل والفرس والناقة » فيما بلم به من قصيدته أمرا مسلما به تدعو إليه الفطرة ، ويمليه الواقع وتلح عليه الظروف !!

٢ — وقضية أخرى تعارف عليها بعض النقاد القدامى أو لعلهم تواضعوا عليها فيما يخص شعر « امرئ القيس » يرويها « ابن سلام » ، عن « لبيد » حين سئل : من أشعر الناس ؟ وكان جوابه : « الملك الضليل » ونقلها « ابن قتيبة » فذكر عنه أن (أشعر الناس ، ذو القرح) يعنى « امرأ القيس(٢) »

وطرح السؤال على ذلك النحو قد يكون وراءه معنى قبلى ، حرصت عليه تقاليد القبيلة وأعرافها ، حين تريد أن تقدم شاعرها على شاعر آخر لقبيلة أخرى . . والحق أن الحكم على شاعر ما بأنه أشعر الناس ينطوى على الجزافية التى لا يقبلها المنطق العلمى أو يستسيغها ، فأما ذكر حالة من مواطن أجاد فيها فذلك هو النقد الذى يصادف موقعاً من المنطق المقبول ومع أن « ابن سلام » ذكر الحيثيات التى توهله لأن يكون فى صدارة

---

(١) الفتوة عند العرب للاستاذ عمر الدسوقى ٤٢ .
(٢) الشعر والشعراء ١/١٠٥ .

الشعراء لا لأنه « قال مالم يقولوا ، ولكنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها واستحسنتها العرب ، واتبعته فيها الشعراء منها ، استيقاف صحبه ، والبكاء فى الديار ورقة النسيب ، وقرب المأخذ وشبه النساء بالظباء والبيض وشبه الخيل بالعقبان والعصى ، وقيد الأوابد ، وأجاد فى التشبيه وفصل بين النسيب والمضى وكان أحسن أهل طبقته تشبيها»(١) .

مع هذه الحيثيات والحجج فلا يستساغ أن يكون « امرؤ القيس » أو من شاكله أشعر الشعراء ، فالشاعر عبقرية تتدفق بصيب من القول فيه ما يبدو رائقاً سلسالا تجمع الأذواق على براعته وجماله ، وفيه ما يبدو كزا ، لم تنصهر خلاله التجربة الشعورية ، أو تنضج فيها ، ثم إن الشعر أفانين مختلفة فيها ما تسخو به موهبة الشاعر ، وهناك منها ما يعالجه الشاعر قسرا — وكأنه يمتح من غور ، وإذا كان لابد من الحكم على شاعر بالفوقية أو دونها فليكن ذلك منوطا بمعنى يفضل فيه غيره ، فأما أن يجىء الحكم عاما فهذا ما يجب أن نتحاماه قدر الوسع ، وليس يغض ذلك من مكانة (امرئ القيس) بحال أو ينزله دون سواه . . . فما نروم ذلك ، بدليل أن أمرأ القيس أخذ منه شعراء كثيرون وتأثروا به وفى هذا ما يبوئه دور الريادة من غير شك .

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل

أخذه « طرفة » فقال :

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد

كذلك أخذ « الشماخ بن ضرار » قوله :

كأن الحصى من خلفها وأمامها إذا نجلته رجلها خذف أعسرا

---

(١) طبقات فحول الشعراء ١/٥٥ .

فقال :

لها منسم مثل المحارة خفة كأن الحصى من خلفه حذف أعسرا(١)

« وامرؤ القيس » له تشبيهات متبدعة كما سبق القول بذلك ، لكن ذلك لا يقضى له بأنه أشعر الناس ، وممن فطن إلى هذا المعنى صاحب المثل السائر ، حيث قال :

« والمذهب عندى فى تفضيل الشعراء أن (الفرزدق) و (جريرا) و (الأخطل) أشعر العرب أولا وآخرا ، ومن وقف على الأشعار ، ووقف على دواوين هؤلاء الثلاثة علم ما أشرت إليه ، ولا ينبغى أن يوقف مع شعر « امرئ القيس » و « زهير » و « النابغة » و « الأعشى » فإن كلا من أولئك أجاد فى معنى اختص به ، حتى قيل فى وصفهم : « امرؤ القيس » إذا ركب ، و « النابغة » إذا رهب ، و « زهير » إذا رغب و « الأعشى » إذا شرب ، وأما « الفرزدق ، وجرير والأخطل » فإنهم أجادوا فى كل ما أتوا به من المعانى المختلفة ، وأشعر منهم عندى الثلاثة المتأخرون وهم « أبو تمام » و « أبو عبادة البحترى » و « أبو الطيب المتنبى » فإن هؤلاء الثلاثة لا يدانيهم مدان فى طبقة الشعراء ، أما « أبو تمام » و « أبو الطيب » فربا المعانى وأما « أبو عبادة » فرب الألفاظ فى ديباجتها وسبكها (٢) .

وكلام « ابن الأثير » أيضاً تعوزه النظرة الموضوعية فى القضية التى طرحها ، وإن كان قد صرح فى ثناياها بما نحن الآن بسبيله من أن التعميم فى الحكم على شاعر ما بأنه أشعر الناس حكم يجافى الحقيقة ، ويبتعد عن الصحة . . .

---

(١) راجع الشعر والشعراء ١/١٣٩ وما بعدها .

(٢) المثل السائر ٢/٣٩٧ لابن الأثير . تحقيق المرحوم محمد محى الدين عبد الحميد ط : الحلبى .

ويبقى أن نقرر فى النهاية أن (امرأ القيس) فتح فتحاً جديداً فى عالم الشعر العربى بما سنه الشعراء من منهج بعده استوى فى صورة خلابة رائعة سواء من حيث سبقه إلى فنون أجاد فيها أو من حيث قدرته على الوصف فى التشبيه ، وقد مضى يعنى بأخيلته ومعانيه وألفاظه مما نجده ماثلا فى استعاراته وبعض طبقاته وجناساته وبذلك أعد الشعراء من بعده للعناية بحلى معنوية ولفظية مختلفة(١) .

(١) تاريخ الأدب العربى – العصر الجاهلى ٢٦٥ د. شوقى ضيف

« نظرات فى القصيدة »

١ — هذه قصيدة طويلة النفس ، تحتشد فيها أفكار جزئية ، يمكن انتماؤها إلى العناصر الآتية :

(أ) النسيب . (ب) وصف الرحلة والناقة .
(ج) هموم وأشواق . (د) فخر وذكريات ولواعج .

فالقصيدة كلها تمزج هذه العناصر بعضها إلى بعض ، فإذا بها فيض من عاطفة شفها الغرام ، لا تلبث بعده أن تسرى فيها لوعة مكلومة تجلل كلماتها ببعض الأسى ، ولا عجب فتلك طبيعة النفس ، وطالما تدلى الشعر إلى أغوار النفس ومساربها جاء ملونا بخصائص النفس وما يسودها من بهجة تارة وحزن طورا .

وطفرات العاطفة الولهى تتخلل القصيدة وأبياتها ، ويبدو ذلك واضحا فى أبيات عديدة جاءت فى النص . وهو دليل الطفرة العاطفية المشدودة إلى المجاهرة عن بالرغائب ، والتنفيس عن آلام تحتل منها مكانا بارزا .

نعم قد تتنوع العواطف الجزئية خلال النص ، ومع ذلك فهذا التنوع يظل على شايكة بالوحدة الشعورية العامة التى سيطرت على الشاعر وقت إنشاء التجربة والتعبير عنها . . . والشاعر الجيد هو الذى يستطيع إثارة العواطف المختلفة فى النفوس على سنن واحد ، وقد لا يتأتى ذلك إلا فى أحوال من الندرة بمكان ، وهى نظرة نقدية سوف نوليها عناية عند الحديث عنها إن شاء الله .

والذى عليه مؤرخو الأدب ونقدته أن « امرأ القيس » برع فى النسيب

والتشبيب « وسبق العرب إلى أشياء ابتدعها » منها : « استيقاف صحبه والبكاء فى الديار ورقة النسيب إلى آخره »(١) .

ويقال إن « امرأ القيس » أول ما شبب بالنساء شبب بأبيات مطلعها :

عهدتنى ناشئا ذا غرة رجل الحجة ذا بطن أقب

وقد وردت أبياتها فى ديوانه وتقتطف منها بعض أبيات وردت على ذلك النحو :

قالت الخنساء لما جئتها شاب بعدى رأس هذا واشتهب
وكساه الدهر لونا ثاغما واستمر البطن ظهرا فذهب
عهدها بى ناشئا ذا غرة فاضل المئزر ذا بطن أقب (٢)

والحق أن العرب كان لهم من النسيب ما يلذ ويطرب على مر العصور، وفى هذا ما يوحى بأن الشعراء عرفوا له خطره : فأكثروا منه فى قصائدهم وعمد جلهم إلى افتتاح قصائده بالنسيب الرقيق أو توجها به حتى يستقطب المشاعر من حوله ، فإنه إذا بلغ البراعة فى ذلك استطاع أن يفهم المعنى الذى إليه يقصد ، وعليه يعول . . . أولا ترى إلى « الشماخ بن ضرار الذبيانى » فى قوله :

رأيت سنا برق فقلت لصاحبى بعيد بفلج ما رأيت سحيق
فبات مهما لى يذكرنى الهوى كأنى لبرق بالحجاز صديق
وبات فؤادى مستخفا كأنه خوافى عقاب بالجناح خفوق(٣)

وهكذا تجد الشعراء يتفاوتون فى تناوله ، فواحد تكاد الصبابة تأتى

---

(١) راجع طبقات فحول الشعراء ١/٥٥ .
(٢) ديوان امرىء القيس ٢٩٣ .
(٣) ديوان « الشماخ بن ضرار الذبيانى » ٢٤٨ تحقيق وشرح د صلاح الدين الهادى .

عليه ، وثان يأبى إلا أن يبدى من الذلة والخشوع ما يستدل به على فرط وجده ، وثالث يود أن يرى فى طيف الخيال ما يشفى غليل عواطفه .

وإنى لأستغشى وما بى نعسة لعل خيالا منك يلقى خياليا (١)

وأيا كانت التفرقة بين الغزل والتشبيب فإن العربى عرف السبيل إليها بفطرته ، ولذلك ألم بها وأفاض القول فيها .

٢ ـ وإذا كانت الذكريات كما يقول أمير الشعراء « شوقى » صدى السنين الحاكى فقد جاءت قصيدته حافلة بالحديث عنها ، ويتمثل هذا فى أبيات من القصيدة تبين منزع الشاعر فى غواياته .

(أ) وهنا يقدم لنا كثرة من الأسماء التى تعلق بها وخاض معها مجاوب العشق ، وفى تعدد صواحبه على هذا النحو ما يعين على فهم الأبعاد التى تشكل ملامح الحديث عن « المرأة » عنده .

(ب) وأخرى يذكر لصاحبته أنه متى ما أحس منها تحولا فى العلاقة فسيبدل ودا آخر بودها ، وذلك فى قوله :

أأسماء أمسى ودها قد تغيرا سنبدل إن أبدلت بالود آخرا

إنه إذن العبث بمودات النساء .

وعلى ذكر هذا المعنى يقودنا الحديث إلى ما قاله « نابغة بنى ذبيان » (الحارث بن عدوان) :

هجرت أمامة هجرا طويلا وما كان هجرك إلا جميلا
على غير بغض ولا عن قلى وليس حياء وليس ذهولا
ولكن بخلنا لبخلك عمدا فكيف يلوم البخيل البخيلا

ويعلق « قدامة بن جعفر » على هذه الأبيات بقوله :

(١) ديوان مجنون ليلى ٢٩٦ جمع وتحقيق الأستاذ عبد الستار فراج .

« ولما كان المذهب فى الغزل إنما هو الرقة واللطافة والشكل والدماثة كان مما يحتاج فيه أن تكون الألفاظ لطيفة مستعذبة ، فإذا كانت جاسية كان ذلك عيبا ، إلا أنه لما لم يكن عيبا على الإطلاق أمكن أن يكون حسنا إذ كان قد يحتاج إلى الخشونة فى مواضع مثل ذكر البسالة والنجدة والبأس والرهبة (١) » .

٣ – ويأتى حديث « امرىء القيس » عن بقية العناصر من خلال الحديث عن « الناقة » وليس « امرؤ القيس » نشازا فى هذا الباب ، إذ قد جرت عادة الشاعر الجاهلى أن يضمن قصيدته ، أبياتا يصف فيها ناقته أو فرسه ، يعود الحديث بعدها ليحتل المقصود الأسمى الذى اتجهت همة الشاعر إليه .

ويكاد الحديث عن الغزل والنوق وما إليها يكون واحداً ، أو بالأحرى فى شكل القصيدة العربية ، وربما كان ذلك منه لأنه رأى فيها رفيقا يتصف بالوفاء النادر والصحبة المقيمة وفى ذلك ما قد يحرك عاطفته إلى أن يتغنى لها بشعره ، يودعه مكتون حواسه ، وذوب خواطره ، فيذهب إلى أنها قوية نشطة ، ويضفى عليها من صفات الضمور والدقة وغيرهما مايراه أهلا لإنجاح مقاصده وتلبية رغباته ، وأن كان بعض الباحثين يذهب فى تعليل ذلك مذهبا آخر يرى فيه أن دخول الشاعر فى وصف الرحلة الطويلة ووصفه الناقة كل ذلك يستتبع غاية يعمل لها الشاعر ، وهو ماسنخصه بمزيد من التفصيل إن شاء الله .

٤ – وحديثه عن الرحلة إلى (قيصر) ملك الروم له مناسبته ، ذلك أنه أراد الاستنصار به بعد أن قتل « بنو أسد » حجرا والده وكانت بينهما علاقة يصرح بها فى قوله .

فإن يك دهر أتى دونه حوادث تامى الخباء الخلد

(١) نقد الشعر صفحة ٩٠ .

فقد كنت فيما مضى مصعبا   أبى الحطام عزيزا مريدا
ونادمت « قيصر » فى ملكه   فأوجهنى وركبت البريدا (١)

ومع هذه العلاقة فإنه لم ينل أربا منه .

٥ ـ وأما « عمرو بن قميئة » صاحبه الذى رافقه فى الرحلة إلى « بلاد الروم» فشاعر « كان مع «حجر « أبى امرىء القيس» (٢) وقدعمر ابن قميئة» حتى تجاوز تسعين عاما أخذا من قوله .

فلو أننى أرمى بنبل رأيتها   ولكننى أرمى بغير سهام
على الراحتين مرة وعلى العصا   أنوء ثلاثا بعدهن قيامى
كأنى وقدجاوزت تسعين حجة   خلعت بها عنى عذار لجامى (٣)

ويذكر « الآمدى » أنه هلك مع « امرىء القيس بن حجر » ولذلك قيل له : « عمرو الضائع » (٤) .

٦ ـ ويكشف « امرؤ القيس » عن أمانيه ورغائبه ، فليس من خمول الذكر حتى يقنع بما كتب له : وإنما هو رجل يسابق «العلياء» ويتمنى الإمارة والجاه أليس هو القائل .

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة   كفانى ، ولم أطلب قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل   وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى (٥)

---

(١) ديوان امرىء القيس ٢٥٢ .
(٢) الشعر والشعراء ١/٣٧٦ .
(٣) ذاته ١/٣٧٧ ، وطالع ديوان (عمرو بن قميئة) مع تغيير فى ترتيب الأبيات وبعض الألفاظ ص ٣٨ و ٣٩ تحقيق الأستاذ « خليل إبراهيم العطية » .
(٤) المؤتلف والمختلف ٢٥٤ .
(٥) ديوان امرئ القيس ٣٩ .

ويبدو هذا بصورة جلية عند قوله يخاطب رفيقه « عمرو بن قميئة » .

فقلت له لاتبك عينك إنما ... نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

ومع ذلك فأبيات القصيدة تمثل منزع « امرىء القيس » فى حياته سوى أبيات تنشح بالشكوى من الأيام ، وما كان للشاعر وهو الذى عهدته الحياة فتى يركب رأسه فى ميادين الغواية والإثم ليعزف :

لقد أنكرتنى بعلبك وأهلها ... ولابن جريج فى قرى «حمص» أنكرا

وشكوى الزمان فى شعره مما يجلى قسمات (امرىء القيس) بعد موت أبيه ، ويضعه فى إطار آخر تجده فيه غاية فى الضعف والاستسلام واليأس . فقد صحا بعد مقتل أبيه على الحقيقة المرة التى غرضته للنصب والوصب بعد حياة أترع كئوسها لذة ، وعب فيها من ألوان المتعة والنشوة مايعكسه شعره . وهذه أبيات تمثل خلاصة ما آلت إليه حاله .

وقد طوفت بالآفاق حتى ... رضيت من الغنيمة بالإياب

أبعد الحارث الملك بن عمرو ... وبعد الخير حجر ذى القباب

أرجى من صروف الدهر لينا ... ولم تغفل عن الصم الصلاب

وأعلم أننى عما قليل ... سأنشب فى شبا ظفر وناب(١)

ويذهب به التحسر مذهبا يندب فيه حظه ، ويأسى على ماض له ماله فيه من مواقف ، وأين الكرى من معاقد أجفانه وهو يعيش صراعا مع الزمن يريد أن يطب لجرح ناغر أدماه .. وهيهات أن تجدى المحاولة .

فاما ترينى لاأغمض ساعة ... من الليل إلا أن أكب فأنعسا

فيارب مكروب كررت وراءه ... وطاعنت عنه الخيل حتى تنفسا

ويارب يوم قد أروح مرجلا ... حبيبا إلى البيض الكواعب أملسا

---

(١) الديوان ٩٩ .

أراهن لايحببن من قل ماله ولا من رأين الشيب فيه وقوسا
فو أنها نفس تموت جميعة ولكنها نفس تساقط أنفسا
وبدلت قرحا داميا بعد صحة لعل منايانا تحولن أبؤسا (١)

* * *

٧ – والمتأمل فى القصيدة يرى أن إيقاعها جاء على نغمة مرنة تمثل من بحور الشعر : بحرها الطويل وتنتظم نغمات هذا البحر التفعيلات الآتية :

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

وعروض الطويل دائما مقبوضة (والقبض حذف الخامس الساكن) ، أما الضرب فيدور بين الصحة والحذف والقبض .

ويغلب على هذا البحر طابع الجدية والرصانة ، ولا سيما إذا كانت القصيدة طويلة أو متعددة الغرض ، « فقد قالوا : إن «الطويل» يمتاز بالرصانة والجلال فى نغماته وذبذباته المنسابة الهادئة، وهو أصلح من أجل ذلك لمعالجة الموضوعات الجدية التى تحتاج إلى طول نفس وروية ، كالمديح والرثاء والفخر والعتاب والاعتذار ، ولذا شاع فى الشعر العربى بما يقارب « الثلث » وسموه « الركوب » لكثرة ما كانو يركبونه فى أشعارهم » (٢) فقد جاء مايقرب من ثلث الشعر العربى القديم من هذا الوزن (٣) أما روى القصيدة فراء نشأ عن إشباع حركتها مايسمى بالوصل « الألف الممدودة » فى القصيدة كلها ، ومن خصائص حرف الراء كما يقرر ذلك علماء الأصوات أنه صوت مكرر ، من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة(٤) واشباع حركة الصوت على غرار ماجاء فى أبيات القصيدة يعطى الصوت مداتعين موسيقى القافية على إبرازه ووضوحه .

---

(١) راجع هذه الأبيات من قصيدة فى ديوان امرىء القيس (١٠٥/١٠٨)
(٢) مجلة الشعر أكتوبر ١٩٧٧ ص ٤٨ د . محمد بدوى المختون
(٣) موسيقى الشعر ٥٩
(٤) راجع الأصوات اللغوية د . ابراهيم أنيس ص ٦٤ وما بعدها

ويضم ديوان « امرىء القيس » نيفا وثلاثين قصيده ، نظمها على هذا البحر ومن بينها معلقته الذائعة .

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول وحومل

كذلك ضم ديوانه قصيدتين متماثلتين جاءت كلتاهما على نفس الروى من بحر الطويل أيضا أولاهما القصيدة التى بدأها بقوله .

صحا اليوم قلبي عن « ليس » وأقصرا وجن بها ما جن ثمت أبصرا(١)

ومطلع الثانية :

أبلغ بنى زيد إذا مالقيتهم وأبلغ بنى لبنى ، وأبلغ « ناضرا »

٨ — والقصيدة التى بين يدأينا غزلية المقدمة ، تسرى فيها نسائم الشوق الجارف والود المتمكن ، وهذه الخصيصة تسود شعر « امرىء القيس » بشكل لافت وهو إزاءها على حالين .

(أ) حال معروفة يجاهر فيها بالعشق العاهر ، والعبث الداعر ، والخلاعة الماجنة ، يتجلى ذلك فى معلقته التى لا يتحرج فيها عن ذكر السعار الحيوانى الذى دفعه إلى مقارفة الإثم وفيها يقول :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وان كنت قد أزمعت صرمى فأجملى
وان كنت قد ساءتك منى خليقة فسلى ثيابى من ثيابك تنسل
أغرك منى أن حبك قاتلى وأنك مهما تأمرى القلب يفعل
وما ذرفت عيناك إلا لتقدحى بسهميك فى أعشار قلب مقتل
وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل
تجاوزت أحراسا وأهوال معشر على حراص لو يشرون مقتلى(٢)

إلخ هذه الأبيات (٣) .

(١) انظر الديوان ٢٦٥ .
(٢) الديوان ٣٤٨ .
(٣) من معلقة (امرىء القيس) ، وقد لفتنا إلى موضع هذه الابيات من الديوان فيما مضى

(ب) حال هادئة ، تلفحه فيها ذكريات الشوق والصبابة، وما كان له فى أيامه الخوالى من ضنى برح به واستبدت طيوفه بخاطره على نحو ما نرى فى أمثال هذه المطالع ، التى ينفلت منها إلى الإلمام بالغرض الذى يعنيه، ولعل فى تمثل الذكريات عنده زاداً يستعين به على ما يرجوه ، حيث تصحو مشاعره وتتيقظ أحلامه، وفى ذلك زاد أى زاد ، ومهما يكن من شىء فقد كان « امرؤ القيس » منهوماً بحب النساء مفتوناً بمغرياتهن ولهذا لا تكاد تخلو قصائده من ذكر المرأة والحديث عنها على نحو أو آخر ..

٩ ــ وإذا انبرى للحديث عن « المرأة » فإن ذلك يقوده إلى أن يستعرض مغامراته الأخرى كالصيد والخمر والدبيب وهى معان تبرز فى شعره ، أو هى على حد ما يذكر الأستاذ (محمد هاشم عطية) : « امرؤ القيس » فى حياة صبوته ، و « امرؤ القيس » فى ذلك الوقت هو هذه الأشياء أو هو ذلك الشعر الذى لم تشهده جزيرة العرب قبل هذا الأمير العربى (١) :

فإذا صار إلى معاناة الشدائد التى باتت ترصده خرج من هذا الإطار إلى إطار آخر، يسوق الحكمة فيه ويعتصر من خبرة الأيام عظة تتردد على لسانه فى بعض قصائده ، من مثل قوله :

حى الحمول بجانب العزل ... إذ لا يلائم شكلها شكلى
ماذا يشق عليك من ظعن ... إلا صباك وقلة العقل
منيتنا بغد ، وبعد غد ... حتى بخلت كأسوإ البخل
يارب غانية صرمت حبالها ... ومشيت متئدا على رسلى
لا أستفيد لمن دعا لصبا ... قسراً ولا أصطاد بالختل

إلى أن يقول :

---

(١) الأدب العربى وتاريخه ١٧٠ .

ـ الله انجح ما طلبت بـه　　والبر خير حقيبة الرحل
ومن الطريقة جائر وهدى　　قصد السبيل ومنه ذو دخل
انى لأصرم من يصارمنى　　وأجد وصل من ابتغى وصلى
وأخى اخاء ذى محافظة　　سهل الخليقة ماجد الأصل
حلو إذا ما جئت قال : ألا　　فى الرحب أنت ومنزل السهل(١)

١٠ ـ وأسلوب القصيدة سهل لا إغراب فيه ، فكلماته غير معتاصة ، إلا فيما أورده الشاعر من أسماء الا مكنة والمواضع ، وذلك ما لا حيلة للشاعر فيه ، والأسلوب فى صورته الكلية يأخذ طابع الوصف : وصف الظعائن ، والدمى ، وأسماء ، وناقته الفارهة وشخصه إلى غير ذلك ...

[وقد خص « قدامة بن جعفر » فى كتابه « نقد الشعر » (الوصف) بما نذكره فيما يلى :

والوصف : إنما هو ذكر الشيء كما فيه من الأحوال والهيئات ، ولما كان أكثر وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعانى كان أحسنهم من أتى فى شعره بأكثر المعانى التى الموصوف مركب منها ، ثم أظهرها فيه وأولاها ، حتى يحكيه بشعره ، ويمثله للحس بنعته » (٢) .

و « امرؤ القيس » وقع من وصفه الذى عرض له غاية فى الإجادة... ألا ترى إلى قوله :

فشبهتهم فى الآل لما تكمشوا　　حدائق دوم أو سفينا مقيرا
أو المكرعات من نخيل ابن يامن　　دوين الصفا اللائى يلين المشقرا
سوامق جبار أثيث فروعه　　وعالين قنوانا من البسر أحمرا

فليس من شك فى أن (امرأ القيس) هنا ألم بكثرة من معانى الموصوف ،

(١) ديوان امرىء القيس ٢٣٦ وما بعدها
(٢) نقد الشعر ١٣٠ .

وهى من الظهور والإبانة بحيث جاءت على غرار ما جاء فى حديث « قدامة » .

ومما يتسم به أسلوب (امرئ القيس) اختياراته اللفظية التى توافق معناه وتناسبه ، وانظر قوله :

إذا قلت روحنا أرن فرانق على جلعد واهى الأباجل أبترا

فالألفاظ : روحنا ، أرن ، فرانق يتتابع صوب (الراء) فيها على نحو يحدث إيقاعاً معيناً ، وفى اختياره لكلمة « الجلعد » بعد تتابع الرنين ما يعطى هذا الرنين قوته .

١١ — والمعانى فى القصيدة لا عمق فيها ، ولا غوص ، فهى معان تشف عنها كلماتها وأساليبها ، وقد حاول (امرؤ القيس) أن يجرى فى تصويرها على نسق لا غلو فيه ، أو مبالغة فيما عدا ما عن له فى هذا المعنى الذى عبر عنه بقوله :

من القاصرات الطرف لو دب محول من الذر فوق الإتب منها لأثرا

ومن هنا كان هذا البيت مبالغة غير مقبولة ، عرض له النقاد القدامى فى نقدهم :

وبعض المعانى فى القصيدة يكشف عن شخصية الشاعر ، وأين هو من قومه ، من مثل قوله مرة :

وكنا أناسا قبل غزوة قرمل ورثنا الغنى والمجد أكبر أكبرا
وما جبنت خيلى ولكن تذكرت مرابطها من بربعيص وميسرا

فهو اعتذار مما أصاب قومه على يدى (قرمل) ولكنه معنى غير مقبول ، أو هو كما يعبرون : عذر أقبح من الذنب .

وقوله مرة أخرى :

علىهافتى لم تحمل الأرض مثله أبر بميثاق وأوفى وأصبرا

هو المنزل الألاف من جوناعط　　بنى أسد حزنا من الارض أو عرا
ولو شاء كان الغزو من أرض حمير　　ولكنه عمدا إلى الروم أنفرا

فلا جدال أنه فى هذه الأبيات يفاخر بمكانه ومكانته ، متوعداً أعداءه بما سيلاقونه على يديه .

ومن أقسام الشجاعة كما يذكر (قدامة) : الحماية والدفاع ، والأخذ بالثأر والنكاية فى العدو والمهابة وقتل الأقران ، والسير فى المهامه الموحشة وما أشبه ذلك(١) .

١٢ — ويجيء التصوير فى القصيدة أحياناً عن طريق التشبيه كقوله :

كأنى دمى سقف على ظهر مرمر　　كسا مزبد الساجوم وشيا مصورا

وقوله :

إذا نال منها نظرة ريع قلبه　　كما ذعرت كأس الصبوح المخمرا

وقوله :

ولم ينسنى ما قد لقيت ظعائنا　　وخملا لها كالقر يوما مخدرا
كأثل من الأعراض من دون بيشة　　ودون الغمير عامدات لغضورا

وأحياناً عن طريق الاستعارة مثل :

نزيف إذا قامت لوجه تمايلت　　تراشى الفؤاد الرخص ألا تختر ا

وقوله :

بسير يضج العود منه يمنه　　أخو الجهد لا يلوى على من تعذرا

وقوله :

أطافت به جيلان عند قطاعه　　تردد فيه العين حتى تحيرا

---

(١) المصدر ذاته (٩٨)

وثالثة : يأتى التصوير عن طريق الكناية مثل :

عليها فتى لم تحمل الأرض مثله أبر بميثاق وأوفى وأصـــبرا

وكذا :

بعيدة بين المنكبين كأنهـــا ترى عند مجرى الضفر هرا مشجرا

ولم يحاول « امرؤالقيس » أن يغرق قصيدته بالمحسنات اللفظية ، وأن يعمد إليها ، إلا ماوقع له من قوله :

سما لك شوق بعد ما كان أقصرا وحلت سليمى بطن قو فعرعرا

. . (إذ فيه التفات)

ومن مثل :

حمته بنو الربداء من آل بامن بأسيافهم حتى أقر وأوقرا

ففيه (جناس)

فلم تقع أمثال هذه المحسنات إلانادراً :

وترى من صور القصر البلاغى قوله :

كذلك جدى ،،أصاحب صاحباً من الناس إلا خاننى وتغـــيرا

ويذكر النقاد القدامى فى هذا النطاق أن (امرأ القيس) أجاد فى التشبيه ، وذهب فيه مذهباً مفتناً ، أثار إعجاب الشعراء من بعده ومازال مذهبه يروقهم إلى أن حاكوه ، فهو « أول من اخترع هذا النوع من التشبيه الذى سماه العلماء بعد « بالتشبيه الملفوف » فى مثل قوله :

كأن قلوب الطير رطباً ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى

وكان « بشار » الأعمى يقول : مازلت أحسد أمرأ القيس على جمعه بين تشبيه شيئين بشيئين فى بيت واحد حتى قلت :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه (١)

---

(١) انظر الصناعتين ٢٥٦ .

وهو الذى تصرف فى تشبيهه « إلى وجوه تستحسن :

١ — فمنها أن نجمع تشبيهات كثيرة فى بيت واحد ، وألفاظ يسيرة كما قال « امرؤ القيس » :

له أيطلا ظبي وساقا نعامـــــة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

فأتى بأربعة أشياء مشبهة بأربعة أشياء، وذلك أن مخرج قوله : لـــه أيطلا ظبي إنما هو على أنه له أيطلان كأيطلى الظبى ، وكذا ساقان كساقى نعامة، وإرخاء كإرخاء السرحان ، وتقريب كتقريب التتفل .

٢ — ومنها : أن يشبه شىء بأشياء فى بيت أو لفظ قصير ، وذلك كما قال « امرؤ القيس »

وتعطو برخص غير شثن كأنـــه أساريع ظبي أو أساويك إسحل

٣ — ومنها أن يشبه شيء فى تصرف أحواله بأشياء تشبه فى تلك الأحوال كما قال (امرؤ القيس) يصف الدرع فى حال طيها :

ومشدودة السلك موضونـــــة تضاءل فى الطى كالمحـــــبرد

ثم وصفها فى حال النشر فى هذه الأبيات فقال :

تفيض على المرء أردانهـــــا كفيض الأتى على الجدجـــــد (١)

* * *

(١) نقد الشعر ١٢٨ .

القصيدة الثالثة
من شعر النابغة
فى
« المتجردة »

— ٣ —

١ — أمن آل مية رائح أو مغتد ... عجلان ذا زاد ؛ وغير مزود

٢ — أفد الترحل غير أن ركابنا ... لما تزل برحالنا وكأن قد

٣ — زعم الغراب بأن رحلتنا غداً ... وبذاك خبرنا الغداف الأسود

٤ — لا مرحبا بغد ولا أهلا به ... إن كان تفريق الأحبة فى غد

٥ — حان الرحيل ولم تودع مهدداً ... والصبح والإمساء منها موعدى

٦ — فى إثر غانية رمتك بسهمها ... فأصاب قلبك غير أن لم تقصد

٧ — غنيت بذلك إذ هم لك جيرة ... منها بعطف رساله وتودد

٨ — ولقد أصاب فؤاده من حبها ... عن ظهر مرنان بسهم مصرد

٩ — نظرت بمقلة شادن متربب ... أحوى أحم المقلتين مقلد

١٠ — والنظم فى سلك يزين نحرها ... ذهب توقد كالشهاب الموقد

١١ — صفراء كالسيراء أكمل خلقها ... كالغصن فى غلوائه المتأود

١٢ — والبطن ذو عكن لطيف طيه ... والنحر تنفجه بثدى مقعد

١٣ — مخطوطة المتنين غير مفاضة ... ريا الروادف بضة المتجرد

١٤ — قامت تراءى بين سجفى كلة ... كالشمس يوم طلوعها بالأسعد

١٥ — أو درة صدفية غواصها ... بهج متى يرها يهل ويسجد

١٦ — أو دمية من مرمر مرفوعة ... بنيت بآجر يشاد وقرمد

١٧ — نظرت إليك بحاجة لم تقضها ... نظر السقيم إلى وجوه العود

١٨ — سقط النصيف ولم ترد إسقاطه ... فتناولته واتقتنا باليد

١٩ — بمخضب رخص كأن بنانه ... عنم يكاد من اللطافه يعقد

٢٠ — تجلو بقادمتى حمامة أيكة ... برداً أسف لثاته بالإثمد

٢١ — كالأقحوان غداة غب سمائه ... جفت أعاليه ، وأسفله ندى

٢٢ — زعم الهمام بأن فاها بارد ... عذب مقبله شهى المورد

٢٣ — زعم الهمام ولم أذقه أنه ... عذب إذا ماذقته قلت : ازدد

٢٤ ـ زعم الهمام ـ ولم أذقه ـ أنه يشفي بريا ريقها العطش الصدى
٢٥ ـ أخذ العذارى عقده فنظمه من لؤلؤ متتابع متسـرد
٢٦ ـ لو أنها عرضت لأشمط راهب عبد الإله صرورة متعبـد
٢٧ ـ لرنا لرؤيتها وحسن حديثها ولخاله رشدا وإن لم يرشـد
٢٨ ـ بتكلم اوتستطيع كلامـه لدنت له أروى الهضاب الصخد
٢٩ ـ وبفاحم رجل أثيث نبتـه كالكرم مال على الدعام المسنـد
٣٠ ـ . . . .
٣١ ـ . . . .
٣٢ ـ . . . .
٣٣ ـ . . . .
٣٤ ـ لا وارد منها يحور لمصدر عنها ، ولا صدر يحور لمورد

• • •

تحليل المفردات

١ – رائح : من الرواح ، ومغتد : من الاغتداء ، والروحة والغدوة : معروفتان ، ومنه راحوا إلى بيوتهم رواحاً ، ومثله . تروحوا إليها ، وأنا أغاديه وأراوحه ، ولقيته رائحة : عشيةعن الأصمعى قال ذو الرمة .

كأنى نازع يثنيه عن وطـــــن صرعان رائحة عقل وتقييد (١)

ويقال كذلك : غاديته مع صدح الديك ، : ذهبت إليه ، واغد عنى : بمعنى اذهب ، لا يفهم من المصراع الأول : « أمن آل مية رائح أو مغتد » ! مايفيد الشك أويدل عليه ، كما قد يوهم بذلك « الاستفهام » الذى تخلله . . .

وعجلان : من العجلة : السرعة ، وعليه جاء قوله تعالى « خلق الإنسان من عجل » (٢) ويراد بالزاد : التحية ، والسلام ، والوداع .

وغير مزود : الواو فيه بمعنى « أو »

٢ – أفد الترحل : دنا الرحيل وقرب ، وهو المراد هنا على مايفهم من السياق ، وأفد كفرح : عجل وأسرع وأبطأ ضد ، والأفد محركة : الأجل والأمد ، والأفدة : التأخير ، وتقول : فلان خرج مؤفداً : أى فى آخر الشهر والوقت ، والركاب الإبل ، لاواحد له من لفظه ، وواحدها : راحلة ، وكأن قد : أى قد زالت لقرب وقت زوالها ودنوه

٣ – زعم الغراب بأن رحلتنا غدا : أى « نعب » فكان نعابه إيذانا بالرحيل .

يقول « المتنبى » مؤكداً ما جبلت عليه الحياة :

---

(١) أساس البلاغة للزمخشرى (مادة روح) .
(٢) سورة الأنبياء « الآية ٢٣٨ .

أبنى أبينا نحن أهل منـــازل أبداً غراب البين فينا ينعـــ
فالموت آت ، والنفوس نفـــائس والمستعز بما لديه الأحمق (*)

ومعلوم أن نعيب الغراب مما كانه ا يتطيرون به ، ومن ثم قال «عنترة» :

ظعن الذين فراقهم أتوقـــــع وجرى بينهم الغراب الأبقع (١

ومن أمثالهم : «أشأم من غراب البين» وإنما لزمه هذا الاسم لأنه إذا بان أهل الدار للنجعة وقع فى موضع بيوتهم ، فلذلك سموه «غراب البين» ، وفيه قال شاعرهم :

وصاح غراب فوق أعواد بانة بأخبار أحبابى فهيمنى الفكر
فقلت غراب باغتراب وبانـــة يبين النوى ، تلك العيافة والزجر
وهبت جنوب باجتنابى منهـــم وهاجت صبا قلت الصبابة والهجر (٢)

والغداف : السابغ الريش ، والغادف : الملاح ، والغادوف : المجداف ، وأغدفت المرأة قناعها . أرسلته على وجهها ، وأغدف الليل أرخى سدوله : وأغدف الصياد الشبكة على الصيد : أسبلها (٣) .

وفى البيت رواية أخرى «وبذاك تنعاب الغراب الأسود»

٤ — المرحب : الرحب والسعة ونصب فى البيت على المصدرية وهو دعاء على الغد بالبعد إن كان التفريق سيقع فيه ، وعلى هذا كان قول «إسماعيل صبرى ، فى «مى» :

إن لم أمتع بمى ناظرى غـــدا أنكرت صبحك يابوم الثلاثاء

٥ — «مهدد» : اسم جارية ، ولعلها «مية» التى جاء ذكرها فى صدارة القصيدة ، وقد حمل الشعر الجاهلى من القصائد ماتضمن اسمين واكثر لامرأة واحدة على الاتساع والمجاز .

(*) انظر ديوان أبى الطيب المتنبى ٥٦ والرواية الأخرى فى البيت الثانى ، تقديم د. عبد الوهاب عزام

(١) شرح ديوان (عنترة) ١٩٠ .

(٢) حياة الحيوان للدميرى ٢/٩٨ ومابعدها .

(٣) القاموس المحيط ٣/١٧٩ مادة (غدف) .

والصبح والإمساء : كناية عن « مدة الدهر » ولم يرد صبحا معيناً ولا إمساء مخصوصاً ، وهذا كما تقول : موعد اجتماعنا الأبد ، والليل والنهار ، تريد آخر الدهر(١) .

٦ – فى إثر غانية . يرتبط هذا البيت بما قبله ، والغانية : التى غنيت بجمالها عن الزينة ، والمقصود بالسهم : النظرة القاتلة التى استقرت فى شغاف القلب ، غيرأن لم تقصد:لم تهلك أو تقتل ، يقال : أقصد السهم : أصاب فقتل مكانه،وأقصد السهم فلانا : طعنه فلم يخطئه ؛ وأقصدت الحية : لدغت فقتلت .

٧ – غنيت بذلك : أقامت ، واسم الإشارة يعود على مابثته من حب غزا قلب النابغة .. وفى القرآن الكريم :

« إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس»(٢) .

٨ – المرنان : مفعال من الرنين (صوت القوس) عند الرمى لشدة الوتر ، والمصرد : المنفذ ، يقال صرد السهم : نفذ حده، وصرده الرامى وأصرده : أنفذه ، وسهم صارد ومصراد : نافذ ، قال الصلتان :

فما بقيا على تركتمانى ولكن خفتما صرد النبال(٣)

٩ – الشادن : ولد الظبى الذى شدن وقوى على المشى ، والمتريب :

---

(١) ديوان النابغة ٩٠

(٢) الآية ٢٤ « يونس » .

(٣) أساس البلاغة « صرد »

المحبوس فى البيت يقال : أرب الرجل بمكان كذا وألب : أقام ، والطير مربة بالوكور ، ويقال تربب ولده ورباه ، والأحوى : الذى به خطان سوداوان ، ومنه قوله تعالى ، « والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى »(١) والأحم : الأسود ، والمقلد : الذى حلى بالقلائد وازين بها :

١٠ ــ والنظم : أى المنظوم ، والسلك خيط النظام ، والشهاب : النار .

١١ ــ صفراء كالسيراء : لعل مراده أنها رافهه منعمة ، تتطيب بالزعفران فتبدو لذلك كالحريرة الصفراء نظافة ورقة ولينا وصفرة ، والغلواء : شدة ارتفاع الغصن ونمائه ، والمتأود : من تأودت فى مشيتها : تثنت .. يقول الشاعر « محمد بدر الدين * » من قصيدة له يصف فيها الحضارة الغربية الخادعة :

خطرت تأود مثل غصن البان ... وتتيه فى عجب على الأخدان
والمعجبون بها مشوافى ركبها ... وكأنهم حشم من الغلمان
قالت تؤنبنى وملء حديثها ... سخط يفور كثورة البركان
يأيها الجافى الغليظ لو أننى ... ناديت صخراً صامتاً لبانى
فأجبتها : أنا يا خليعة لم أبع شرقيتى ... فرى الرعاع بذلك الهذيان

... الخ .

١٢ ــ عكن : جمع عكنة : ما انطوى وتثنى من لحم البطن، والمراد : أنها غير مفاضة ولا مترهلة ، وتنفجه : ترفعه وتعليه ، يقال : نفج الثدى القميص : رفعه ، والنفاج : المتكبر كالمنتفج، وامرأة نفج (بضم أوله وثانيه)

---

(١) الآيتان ٤، ٥ من سورة « الأعلى » .

* من الشعراء المعاصرين النابهين ، عرفته المجامع الأدبية بالقاهرة فى الستينيات ، وقد نشرت له مجلة كلية « اللغة العربية بالقاهرة » (١٥٨/١٩٥٩) القصيدة كاملة ، وجاء للتنويه بهذه الأبيات من قبيل الاستئناس لا أكثر .

الحقيبة : ضخمة الأرداف والمآكم ، والمقعد : الغليظ الأصل فى أول قعوده الذى لم يسترخ .

١٣ ــ مخطوطة المتنين : فى متنيها خطان ، أو هى الملساء الظهر ، والمفاضة : الواسعة البطن العظيمته ، والريا : الممتلئة ، وبضة المتجرد ، ناعمة الجسم إذا تجردت .

١٤ ــ تراءى : تتظاهر وتعرض نفسها ، والسجف : الستر المشقوق الوسط ، تقول : أسجفت الستر : إذا أرسلته،ومن المجاز : أرخى الليل سجوفه ، وأسجف الليل : أظلم ، والأسعد : برج الحمل .

١٥ ــ صدفية ، من الصدف : المحار ، وبهج :سعيد مسرور لظفره بتلك الدرة النفيسة ، ورهل : من أهل فلان بذكر الله : رفع به صوته ، وأهل المحرم بالحج والعمرة : رفع صوته بالتلبية، وأهلوا الهلال واستهلوه، رفعوا أصواتهم عند رؤيته(١) وتشبيه المرأة بالدرة واضح لايخفى .

١٦ ــ دمية : صورة ، جمعها : دمى ، ودميات ، والمرمر : الرخام ، والقرمد : خزف مطبوخ مثل الآجر .

١٧ ــ القصيف : نصف خمار ، أو نصف ثوب يعتجر به .

١٨ ــ البنان : الأصابع المخضوبة ، والعنم : أساريع (دود) حمر تكون فى البقل فى الربيع ، أو هو شجر أحمر الثمر ينبت فى جوف السمر ، ويروى ، (عنم على أشجاره لم يعقد) :

١٩ ــ العود : جمع عائد : زائر ، والمعنى أنها نظرت فى إشفاق ، متمنية أن تقضى حاجتها من الكلام معه،وفى الشعر العربى كثير من أمثال هذا المعنى الذى جاء فى البيت ، كقول بعضهم :

أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشارة محزون ولم تتكلم

---

(١) أساس البلاغة « هلل »

فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا وأهلا وسهلا بالحبيب المتيم

٢٠ ــ القادمتان : ريشتان تكونان فى مقدمتى الجناحين ، وخصهما بالذكر نظراً لأنهما أشد سواداً من سائر الريش، وأسف لثاته ، ذر الإثمد على لثاتها ، وكان يفعل ذلك أهل الجاهلية ، يغرزون الشفة بإبرة ثم يذرون عليها أثمدا أو نورا فيبقى سواده فيحسن بياض الثغر ، والنور : شحمة تجعل على النار ، ثم يكب عليها طست أو ما أشبهها حتى تدخن ، ثم يحكون ما لزق فيه من الدخان بالطست فيجعلونه مكان الإثمد(١) .

٢١ ــ الأقحوان : نبت ذو نور أبيض وسطه أصفر ، وغب الأمر : بعده ، والسماء : المطر ، وجفت أعاليه وأسفله ندى ، يريد أن (الأقحوان) بلله المطر ليلا فغسل ماعليه من غبار ، وبهذا صار لونه صافياً ، ثم جف الماء الذى هطل على أعلاه فازداد لمعانه وبياضه ، وكان هذا المطر مما غذاه فاكتسى رونقا وصفاء .

٢٢ ــ الهمام : « النعمان بن المنذر » . ولعله سماه بذلك لأنه إذا هم بأمر أمضاه ، على نحو ما جاء فى قول الشاعر :

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ونكب عن ذكر العواقب جانبا

أو لأنه بعيد الهمة .

١٤ ــ الريا ، الريح الطيبة ، والصدى : الشديد العطش .

٢٥ ــ العذارى : جمع عذراء : الجارية البكر ، والمتسرد : المتتابع الذى والى صاحبه بينه وتابعه .

٢٦ ــ الأشمط : الأشيب ، وامرأة شمطاء ، ولايقال شيباء ، ومن المجاز ، طلع الشميط وهو الصبح ، قال للشاعر :

وأعجلها عن حاجة لم تفه بها شميط تبلى آخر الليل ساطع(٢)

والصيرورة : الذى لزم صومعته لايريد مبارحتها لحج أو غيره ، أوهو الذى لايأتى النساء ، أو هو الذى لم يذنب قط .

---

(١) الديوان ٩٤ (٢) أساس البلاغة « شمط »

٢٧ ــ لرنا : لأدام النظر إليها ، وضرب صفحا عما هو فيه من ألوان العبادة ، وخاله : ظنه :

٢٨ ــ الأروى : إناث الوعول ، وتوصف بأنها أشد الوحش نفارا عن الإنس ، والهضاب الصخد : الجبال الملس ، أو المنتصبة ، أو الثابتة ، ولو تستطيع كلامه يحتمل معنيين ، أولهما ، لو تستطيع حكايته ، والثانى لو تستطيع سماعه ، والأول هو الأنسب لأن الحكاية تستتر لها ، فكيف بأصل الكلام ! .

٢٩ ــ وفاحم ، صفة لموصوف محذوف ، ويشعر فاحم ، شديد السواد ، والرجل ، الممشوط الرجل ، والأثيث ، الكثير الذى ركب بعضه بعضا ، ومنه أث النبات ، يثث (مثلثه) أثاثة وأثاثا وأثوثا ، كثر والتف ، وأثت المرأة : عظمت عجيزتها وهو أث وأثيث : كثير عظيم .

والمسند : الذى أسند بعضه إلى بعض ورفع ، والدعام : واحدة ، دعامة .

٣٤ ــ والورد والصدر فى الماء ، هذا هو المعنى الأصلى ، ومنه مورد الماء ومصدره ، وما شاكل ذلك ، والمعنى هنا ، أن المتجردة من يريدها لا يبتغى عنها حولا ، وكذلك الذى لا يصدر عنها لا يرجو سواها ، ويحور : يرجع .

(فى جو القصيدة)

القصيدة — كما علمت — من شعر « نابغة » بنى ذبيان ، تتجرد لوصف امرأة « النعمان بن المنذر فى لوحة فنية رائعة تنطق بالإغراء والمفاتن .

وتعكس هذه اللوحة معنيين عريضين يتجسدان فيها :

(ا) نفس تتناجر ، وإحساس مشحوذ .

(ب) معالم الفتنة فى « المتجردة » .

فأما نجواه إلى نفسه فهمس دب فى مشاعره ، وحنين أفعم به وجدانه ووساوس كربت نفسه ، واستبدت بكل كيانه ، فلقد أصبح الرحيل وشيكا ، ودنا فراقه لآل « مية » بعد أن نعب غراب البين مؤذنا بالترحال فى « غد » حتى صار هذا الغد يوما مشئوما ، تمنى لو لم تطلع شمسه ، أو تذر قرنها على الوجود . فما الزمان إذا لم يحمل البشرى ويجلب المسرة ! وهل يكون غير الداء العضال يتجرع المشوق غصته فى هم دفين ، وحزن مقيم ، ولوعة راسخة ؟ ؟

لقد كان الشاعر يعيش مع « مية » وملء أعطافه سعادة دونها لذا ذات الحياة ، ولم يكن ليتوقع أن يتحقق « البين » على تلك الصورة المذهلة التى لم تدع أمامه فرصة مواتية لوداعها بما يهدهد من مشاعره ، وهذا ما أمضه وضاعف من أوصابه وزاد فى بلابله ولوعته .

أرأيت إليها وهى لا تملك غير نظرة تشيعه بها لحظة الرحيل ؟ لكم كانت نظرة نفاذة حادة ، استطاعت — لحدتها — أن تخترق الضلوع والحنايا بيد أن ذلك كان بردا وسلاما على قلبه الذى لم يلبث أن أحاطها بوجيبه ، واكتنفها بسياجه ، ودثرها بشغافه ، وعندئذ وجدت النظرة سبيلها إلى حيث تستكن فى مأمن تغذوها تربته ، ويرف بظله عليها .

فما أبعد الفرق بين ما كان عليه بالأمس وما هو الآن فيه ! وأين هذه اللحظات المؤلمة من أيام ، انعطفت نحوه فيها بالحب تارة ، وبالرسائل الملتهبة طوراً .

أجل ، كانت نظرتها إليه سهما مرنانا مرق إلى قلبه ، فأشبه فى مروقه القوس المسدد إلى الرمية فى صوت وصدى ، غير أن المشوق لا يقنع — فى موقف الوداع — بالنظرة تلقى عليه وكفى ، ولئن قنع بها إن ذلك منه لدليل حى على عدم حيلته واستنفاد وسائله ، وإذا كان للنظرات لغى فإن المحب العاشق ، والمدله المتيم وحده خير من يستشف مراميها ، ويستبطن أسرارها.

فعلت ذلك « المتجردة » حين جعلت سفارتها إليه نظرة تنم عن معنى ، وإلا ففيم تلك النظرة الحزينة التى يطفر فيها التحسر على الفراق الطارىء !!

ويا لتلك النظرة الأسفية من غادة حظيت بالفتنة مجسمة فى كل موطن منها تقع عليه العين ، أو لم تكن نظرتها نظرة شادن زينت جيده القلائد ، ورصعته باللآلىء والجواهر ، وضوأ نحرها العقد الذى كانت تتحلى به ، كأنه الشهاب الموقد ، فوق أن أريجها ينتشر فى كل مكان تحل به ، أو تقيم فيه ، فإذا أضيف إلى هذا كله طول فارع يتثنى فى المشى ، ويتأود فى السير على حد ما يقول « بشار » .

إذا قامت لصحبتها تثنت كأن عظامها من خيزران

وبطن غير مفاضة ، مهفهفة ، وردف ممتلىء ، وجسم بض ، ونحر يعلوه صنمان عاجيان ، كأنهما اللذان اختصهما « نزار قبانى » الشاعر المعاصر بقوله عنهما :

صنمان عاجيان إنى أعبد الأصنام رغم تأثمى

كانت آية الآيات فى الفتنة الطاغية .

أو لم يكن « نزار » متعريا فى حديثه عمن يصفها حين أهاب بها :

فكى الغلالة وحسرى عن نهدك المتضرم
نهداك ما خلقا للثم الثوب لكن للفم

ثم ينبرى « النابغة » — بعد ذلك ، يرسم مشهدا للمتجردة ، يتمثل فى قيامها من وراء الأستار تريد النظر إليه ، وما إن نظرت حتى كانت ضوءا اخترق الحجب بأضوائه الساطعة ، أو درة من صدف افتقدها الغواص إلى أن ظفر بها مما جعله جذلان منتشيا ، يلهج بالثناء والضراعة لله ، شكرا له على تحقيق أمنية طالما أرنا إليها ، أو تمثالا من مرمر شادته يد صناع ماهر افتن فى تصميمه بما جسم من آيات الإبداع ، وأمارات الفن فيه ، وإذا كانت « المتجردة » قد رمقته بنظرة حانية فإنها لم تستطع أن تبثه مشاعرها الحارة ، أو تزجيه خلجات تعيش فى أعماقها ، وكيف وقد كان قيامها مما أطار لبه ، وهاج عاطفته إذ سقط خمارها الذى كانت تختمر به ، ولم يكن بد من تناوله ، بعد أن أسدلت يدا بضة رخصة على وجهها ، خشية أن تقتحمها العيون ، وهى على ما هى عليه من سفور مغر ، وفتنة طاغية .

وغريب أن يعتصم الجمال بالجمال وأن يكول له سترا وحائلا ، ولو أنها اتخذت من دونه وقاية غير يدها لوقع ذلك عليه وقعا خفيفا ، أما أن يكون حائلها كفا لطيفة مخضبة ، تثير الإغراء ، وتبعث على اللواعج والشجن وثغرا تسرى فيه الجاذبية ويلفه السحر فدون ذلك الحتف المبين والهلاك المحقق ، إذ كيف للمشوق أن يصبر على تلك النضرة يراها ولما يهتصر عودها وينعم بجناها ! ! أو ليس جمالها الأخاذ كان مدعاة إلى أن يتحدث عنه « النعمان بن المنذر » — زوجها من غير تحرج أو تأثم : يصفها مفتونا بها ، فيضفى عليها أمارات الوسامة والقسامة من فم يرد حرارة الشوق ويبل صداه حتى لكأن أمير الشعراء « شوقى » عناه ، حين قال على لسان « قيس » :

منى النفس ليلى قربى فاك من فمى كما لف منقاريهما غردان
نذق قبلة لا يعرف البؤس بعدها ولا السقم روحانا ولا الجسدان

فكل نعيم فى الحياة وغبطة على شفتينا حين تلتقيان
ويخفق قلبانا خفوقا كأنما مع القلب قلب فى الجوانح ثان

ناهيك بما لها من در منظوم يزين هذا الفم : وكلام يلمس من النفس وترا ، على أن « المتجردة » لا تبعث الفتنة عند الشباب وحدهم ممن يشرئبون إلى الحسن ويبحثون عنه هنا وهناك ، فمثل « المتجردة » تفتن الراهب عن دينه وتصرفه عنه ، حتى إنها لو تعرضت له وقد انقطع عن أسباب الحياة ، واعتزل من حوله عاكفا على العبادة فى صومعته لأنسته عبادته واستغراقه وتأملاته ، بل وربما ظن أن النظر إليها واستدامته هو عين الكياسة والعقل ، مع أن الواقع على خلاف ذلك ... ولهؤلاء الرهبان كل المعاذير ، ذلك أن الوحوش — على ضراوتها — تشرك المتنسكين فى الافتتان بالمتجردة ، والدليل على ذلك أنها إذا استمعت إلى صوتها يحكى استنزالها ذلك من الذرى والقمم التى تتحصن بها :

هذه هى المتجردة ، فتنة تتجسد فى كل ما يتراءى منها ، وروعة تستغرق معالمها وصفاتها ، أو يظن — مع ذلك — أن ينساها أو يتناساها من تعلق بها أو وقعت عينه عليها ولو مرة واحدة ! وهل ثمة من يستطيع التحول عنها إلى غيرها — مهما تكن حسناء — فى رضا تشتشعره نفسه وهدوء يحسه فى باله ! لئن وجد فهو جماد لاحراك فيه ولا نبض ، لا يدرى ما العشق أو الهوى .

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حجرا من جانب الصخر جلمدا

« رؤية تاريخية ، ونظرة تحليلية »

قصيدة « النابغة » فى وصف (المتجردة) امرأة « النعمان بن المنذر » على ما رأيت ، وإن شئت فى الغزل بها . . . استغرق « النابغة » فيها وصف مفاتنها الظاهرة ، واستقصى آيات الحسن الخالب الذى يثير الإغراء .

والقصيدة ذات واقع معاش ، لا معدى لنا عن الإحاطة به ، ابتغاء الوقوف على جوها الذى تمخض عن تلك القصيدة ، وعكس روعة التجربة الشعرية فى نبض آسر ، ووقع مؤثر .

ذلك أن (النابغة) كان يعيش فى بلاط « النعمان بن المنذر » بحظوة عنده ، يخلع عليه أماديحه وروائعه فيجزل له المثوبة والعطاء ، وكم كانت قصائد « النابغة » فى « النعمان » باعثا ، هزه إلى الندى المعطاء ، ودفعه إلى الأريحية الكريمة .

عاش « النابغة » على هذا الإغداق عبدا لنوال « النعمان » حتى صار ذا مكانة أثيرة عنده ، وراق للنعمان أن يستمع إلى قصيدة للنابغة يصف فى ثناياها « المتجردة » ولذ للنابغة — وهو الشاعر — أن ينزل على رغبة « النعمان » ، بيد أن ذلك — فيما يبدو — كان دافعا له إلى أن يدع نفسه للسجية ، وأن يرسل النفثة الشاعرة فى « المتجردة » على ما تواتى به الموهبة دون ما حد أوسند ، ولعله فعل ذلك إرضاء للنعمان من جهة ، وإيمانا منه بأن تجسيده « المتجردة » لن يثير حفيظته عليه من جهة أخرى ، حيث استبعد — كما يتجلى ذلك — أن تحرك القصيدة كوامن السخط ، وأن تبذر فيها بذور الغضبة والنقمة ، فضلا عن أن تنهض لتمزيق أواصر الود بينهما .

ويذكر « ابن قتيبة » ت ٢٧٦ هـ فيما يذكره حول هذا الموضوع ما يلى .

« كان السبب فى مفارقته » يعنى « النابغة » إياه (أى النعمان) : ومصيره إلى « غسان » أن قال له ، وعنده « المتجردة » امرأته : صفها لى فى شعرك يا أبا أمامة ، فقال قصيدته التى أولها

« أمن آل مية رائح أو مغتد »

وقد ذكر فيها بطنها وعكنها ، ومتنها ، ورواذفها ، وفرجها .

وكان للنعمان نديم يقال له « المنخل اليشكرى » يتهم بالمتجردة ، ويظن بولد النعمان منها أنهم منه ، وكان « المنخل » جميلا ، وكان « النعمان » قصيراً دميما أبرش ، فلما سمع « المنخل » هذا الشعر ، قال للنعمان : ما يستطيع أن يقول مثل هذا الشعر (مشيرا إلى عدة أبيات وردت فى نهاية القصيدة ، يتعفف القلم عن ذكرها) إلا من قد جرب ، فوقر ذلك فى نفسه ، وبلغ « النابغة » ذلك فخافه فهرب إلى « غسان » فصار فيهم ، وانقطع إلى « عمرو بن الحارث الأصغر الغسانى » وإلى أخيه « النعمان بن الحارث » فأقام « النابغة » فيهم ، فامتدحهم فعم ذلك « النعمان » وبلغه أن الذى قذف به عنده باطل ، فبعث إليه :

إنك صرت إلى قوم قتلوا جدى ، فأقمت معهم تمدحهم ، ولو كنت صرت إلى قومك لقد كان لك فيهم ممتنع وحصن إن كنا أردنا بك ما ظننت ، وسأله أن يعود إليه ، فقال شعره الذى يعتذر فيه ، وقدم عليه مع « زيان بن سيار » و « منظور بن سيار » الفزاريين ، وكان بينهما وبين « النعمان » دخلل ، فضرب لهما قبة ، ولا يشعر أن « النابغة » معهما ، ودس « النابغة » أبياتا من قصيدته :

يا دار مية بالعلياء فالسند

وهى :

نبئت أن أبا قابوس أوعدنى ولا قرار على زأر من الأسد

مهلا فداء لك الأقوام كلهم وما أثمر من مال ومن ولد
فلا لعمر الذى مسحت كعبته وما أريق على الأنصاب من جسد
ما إن بدأت بشئ أنت تكرهه إذن فلا رفعت سوطى إلى يدى

فلما سمع « النعمان » الشعر أقسم بالله إنه لشعر « النابغة » ، وسأل عنه فأخبر أنه مع الفزاريين ، وكلمه فيه فأمنه (١) .

تلك قصة « النابغة » مع « النعمان بن المنذر » .

وإذا كان « النابغة » قد نزع فى وصف « المتجردة » منزعا ماديا صرفا ، تمحض فيه للغزل الصريح فإنه — بذلك — لم يخرج عن صور الوصف السائد لدى شعراء عصره ممن نرى فى شعرهم أنماطا للغزل المكشوف .

على أن الدقة العلمية — ونحن نأخذ فى إماطة اللثام عن ذلك المعنى — تقتضينا التحسب فى تعميم هذا الحكم ، وانسحابه على نابغة « بنى ذبيان » ، فالذى يتأمل ديوانه — فى روية — تستوقفه وتسترعى انتباهه ظاهرة معينة ، تتمثل فى خلو الديوان من الشعر المفحش الذى جاءت على شاكلته قصيدة « المتجردة » ، بل وربما راعه منه قوله فى إحدى قصائده :

بانت سعاد وأمسى حبلها انجذما واحتلت الشرع فالأجزاع من إضما
إحدى بلى ، وما هام الفؤاد بها إلا السفاه ، وإلا ذكرة حلما
ليست من السود أعقابا إذا انصرفت ولا تبيع بجنبى نخلة البرما
غراء أكمل من يمشى على قدم حسنا ، وأملح من حاورته الكلما
قالت : أراك أخا حل وراحلة تغشى متالف لن ينظرنك الهرما
حياك ربى فإنا لا يحل لنا لهو النساء ، وإن الدين قد عزما (٢)

(١) الشعر والشعراء ١/١٦٦ وما يليها .
(٢) ديوان (النابغة) ٦١ تحقيق الأستاذ : محمد أبو الفضل إبراهيم .

وواضح من هذه الأبيات ما يتصف به « النابغة » من العفة والطهر، وأخذه النفس على السمو بالابتعاد عن الخنا والدنية ، حتى لا يسقط فى الحضيض الأوهد ، أو تنزلق به قدماه إلى مهاوى الزلل ، والبيت الأخير منها لا يعدو أن يكون انعكاسة صادقة لنسكه وعبادته . .

ولكننا مع هذا كله — لن ننكر قصيدة « النابغة » فى وصف « المتجردة » ولن نرفض أيضاً هذه الأبيات التى اجتزأناها من قصيدة له نسوقها شاهدا يؤكد ما جبل عليه « النابغة » من خلق حيى وشمائل كريمة ، نعم لن نرفض هذه القصيدة أو تلك كما ذهب الدكتور « شوقى ضيف » ...

وحرى بنا ألا ننساق وراء تعميمات لا يأمن صاحبها العثرة، فلنجل أبعاد هذه القضية بما يبدد التهافت فيها أو الرأى الفطير وبضوئ الرأى الأوفق فيما نعرضه من آراء حول هذا الموضوع :

ونقرر — منذ البداية — أن الدكتور « شوقى ضيف » أبى إلا أن تكون قصيدة « المتجردة » التى بين أيدينا من صنع الرواة ، وعمل الوضاعين، مستنداً فى ذلك إلى ما يلى :

(أ) أن قصيدة « المتجردة » خلو من السند ، بالرغم من رواية « الأصمعى » لها ، وهو الراوية الثقة ، والحجة الثبت ، وخلوها من السند مما يقدح فى صحتها وقوتها .

(ب) وأن خلوصها للغزل الفاضح شاهد على بعد الصلة بينها وبين شعره « النابغة » مما يقوى — فى الوقت ذاته — أن تكون القصيدة منحولة على « النابغة » .

(ج) واصطناع هذه القصيدة على النحو المشار إليه من شأنه أن يصم الرواة الذين جهدوا فى نسج خيوطها بقصر النظر ، وذلك حين أرادوا

أن يقدموا لنا سببا لعله يبدو مقبولا وراء القطيعة التى كانت بين « النابغة » و « النعمان » فى فترة ، « إذ جعلوه يتغزل بزوجه هذا الغزل الماجن الذى يندى له الجبين ، وكأنما ضاقت الدنيا على « النابغة » فلم يجد امرأة يتغزل بها هذا الغزل المفحش ، سوى زوج « النعمان » ، ولو أن الرواة كانوا متعمقين فى فهم العصر الجاهلى ، وما كان فيه من منافسة شديدة بين « المناذرة » و « الغساسنة » ، بل لو أنهم تعمقوا فى درس شعر « النابغة » لعرفوا أنه اضطر اضطرارا إلى مغادرة بلاط « النعمان » ، والتوجه إلى « الغساسنة » ، حتى يفك أسرى قومه عندهم عقب معارك رجحت فيها كفة الغساسنة ، بل لقد هزموهم هزيمة منكرة ، وبذلك فقد « النعمان » داعيته فى (ذبيان) ، وغضب عليه غضبا شديداً ، وما زال « النابغة » عندهم ، ليرد كيدهم عن قومه حتى إذا دار الزمن ، وتوفى خصما ذبيان من الغساسنة ، وهما عمرو ، وأخوه : النعمان ، رأى « النابغة » أن يعود إلى بلاط « النعمان بن المنذر » ، لاخوفا على نفسه كما يقول الرواة ، بل خوفا من تأليبه القبائل على قبيلته ، فالموقف كله كان موقفا سياسيا ، ولم يكن موقفا شخصيا » (١) .

ذلك هو الرأى الذى انتهى إليه الدكتور «شوقى ضيف »حول قصيدة « النابغة » فى وصف « المتجردة » ومع تقديرنا لهذا الرأى وصاحبه يجمل بنا أن نطرحه للمناقشة والبحث ، مجابهة لما قد يعن لنا فيه من ملاحظة أو وجهة نظر .

١ ــ فأما الحجة التى عول عليها فى الدليل الأول فلسنا نحس ميلا إلى قبولها والاطمئنان إليها ، ولعل سبب ذلك يرجع ــ فى تقديرى ــ إلى أن الدكتور (شوقى ضيف) لم يعتمد شعر « النابغة » إلا فيما رواه « الأصمعى » ويعنى هذا أنه من الرواة الثقاة كما نوه بذلك ، غير أنه كر على نفسه فعاد

---

(١) تاريخ الأدب العربى ــ العصر الجاهلى ٢٨٧ د . شوقى ضيف

يسحب هذه الثقة وينحيها جانبا ، منكرا أن تكون قصيدة « المتجردة » ، مع أبيات فى ديوانه من شعر « النابغة » .

ولست أدرى هل تتجزأ الثقة ، فيكون الرواية الواحدةثقة فى قصيدة ومتهما فى قصيدة أخرى ، وما جدوى أن يقرر الدكتور « ضيف » أن محك النظر فى قصائد النابغة لتقويموالدراسة منوط بالروايةعن « الأصمعى » ثم يعدل عنه .

وإذا كان ذلك رهنا بالسند — على حد ما رأى — أفليس أحق بالإنكار وأولى به هى تلك القصائد التى وردت مروية فى ديوانه عن رواة آخرين كسائر الروايات التى حفل بها ديوان شعره ، أما التشكيك فى قصيدة « المتجردة » وهى من رواية « الأصمعى » — مرة ثم التشكيك فى بعض قصائد أخرى ، رويت عنه : بحجة عدم الإسناد فأمر يعرض التراث للانتقاض والاهتزاز ، فما كانت رواية القصائد — ولا سيما عن طريق موثوق بصحته — كرواية الحديث النبوى يعوزها السند الدقيق ، وإلافكيف يكون موقفنا إزاء أمهات الكتب الأدبية فى تلقى روايات ترد فى تضاعيفها من غير ماسند يؤكدها ، على أنه يجب ألا نغلو فى اطراح الثقة عنالرواة الآخرين ، فنعمد إلى الارتياب فى رواياتهمدون أن نقدمالدليل أو البرهان فعلوم أن أشهر الوضاعين من الرواة كحماد الرواية — وهو المتهم فىروايته لايمكن أن نجرده من الصدق ، مع اليقين بأن ماشاع عنه من روايات موضوع كله جدلا ، وإلا كان معنى ذلك الاقتئات والجور على رواة ربما تضافرت ظروف معينة على إشاعة قالة السوء عنهم ، وماهم منهافى شىء .

ونستأنس فى ذلك بما ذهب إليه الدكتور (ناصر الدين الأسد) فى كتابه القيم (مصادر الشعر الجاهلى) ،حيث لم يستبعد أن تكون تلك الروايات التى استفاضت باتهام الرجلين (يعنى حمادا وخلفا) موضوعة مفتراة عليهما ، عمد إليها بعض معاصرى الرجلين الذين أرادوا أن ينتقصوا من منزلتهما ، فروجوا تلك الروايات ، ثم تنوقلت بعد ذلك ، حتى صارت سمة عليهما

فى كتب الأدب ونقده (١) » .

ونود أن ننبه هنا إلى أن الدكتور « شوقى ضيف » وآخرين ممن جروا على هذه النظرة فى قصيدة (المتجردة) من أمثال الدكتور (محمد زكى العشماوى) الذى اعتمد تلك النظرة وسايرها فى نطاق معين بناء على ماعرض له من أدلة يمكن تلخيصها فيما يلى .

(أ) روح « النابغة » ، وحرصه فى علاقته بالملوك .

(ب) مانخلل القصيدة من أبيات تبدو متناقضة من مثل قوله :

حان الرحيل ولم تودع مهددا والصبح والإمساء منها موعدى

وقوله بعد ذلك :

غنيت بذلك إذهم لك جيرة منها بعطف رسالة وتودد

(ج) خلو ديوان « النابغة » وشعره من الإشارة إلى « المتجردة » إذا استبعدنا هذه القصيدة من شعره .

(د) غير مستساغ أن تكون قصيدته فى المتجردة هى السبب فى هربه « النابغة » ، وغضب « للنعمان » عليه (٢) نود أن ننبه إلى أن هؤلاء الباحثين يشايعون الدكتور « طه حسين » — من وجهات نظر مختلفة تنتهى أخيراً إلى رأيه الذى ضمنه نظرته المعروفة فى الشعر الجاهلى ، أو على الأقل تنتمى إليه بسبب أو آخر .. وليس هذا مأخذا يغض من أقدار الباحثين ، كما أن النظرة الموضوعية تكبر الدكتور « طه » ، فلولاه ماكانت تلك الرؤى المتعددة التى تمخضت عنها عقول الباحثين بعده .. ويتمثل رأيه فى شعر « النابغة » وقصيدته فيما يأتى :

« ومن غريب الأمر أنا نقرأ شعر « النابغة » الذى قاله ، معتذرا فيه إلى « النعمان » مستعطفا له ، فلا ترى فيه شيئا ، أو لانكاد نرى فيه شيئا يبين أصل هذا السخط ، وظاهر أننا لانقف عندقصة السيف وقفه الجادين

---

(١) انظر مصادر الشعر الجاهلى ٤٧٨ — ٤٤٥

(٢) راجع : النابغة الذبيانى ٨١ ومايليها ، د. محمد زكى العشماوى .

ولا ننظر إلى قصة المتجردة إلا باسمين ، وأن من الحق أن نلتمس أصل هذا السخط فى غير هاتين القصتين ، وربما كان شعر « النابغة » نفسه على غموضه وكثرة النحل فيه هو الذى يستطيع أن يدلنا دلالة قوية أو ضعيفة على أصل هذه القصة ، والظاهر أن أصل هذه القصة سياسى ، فالتنافس بين الفرس والروم فى آخر العصر الجاهلى معروف ، ومعروف أيضا أنه استتبع تنافسا بين ملوك الحيرة وملوك الشام ، وأن الأمر لم يقف عند التنافس ، بل تجاوزه إلى حروب دموية عنيفة ، والظاهر أن ملوك الحيرة وملوك الشام كانوا يبذلون جهودا عنيفة فى نشر الدعوة لأنفسهم وساداتهم من الفرس والروم داخل البلاد العربية ، والظاهر أن الغسانيين قد استطاعوا فى وقت من الأوقات أن يستهووا « النابغة » ، فسعى اليهم ومدحهم رغم انقطاعه إلى « النعمان » فغضب « النعمان » لذلك ، وأوعد « النابغة » .

ويضيف بعد ذلك قوله .

وظاهر أننا نرفض قصيدة « المتجردة » كلها ، ولا نقبل منها إلا أولها

من آل مية رائح أو مغتدى عجلان ذا زاد وغير مزود
زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك خبرنا الغراب الأسود
لامرحبا بغد ولا أهلا به إن كان تفريق الأحبة فى غد(١)

ثم إن الدكتور « طه حسين » متأثر أيضا فى ذلك بما لفت إليه بعض النقاد القدامى ، ممن نفى أن تكون هذه الأبيات فى الاعتذار إلى (النعمان) من شعر « النابغة » .

أتيتك عاريا خلقا ثيابى على خوف تظن بى الظنون
فألفيت الأمانة لم تخنها كذلك كان « نوح » لا يخون

---

(١) فى الأدب الجاهلى ٣٠٠ وما بعدها

فقد ذكر « ابن سلام الجمحى » ت ٢٣١ هـ حولها ما نصه :

« ويروى عن « الشعبى » عن « ربعى بن حراش » أن (عمرا بن الخطاب) قال : أى شعرائكم الذى يقول :

فألفيت الأمانة الخ . . . وهذا غلط على « الشعبى » أومن « الشعبى » أومن « ابن حراش » . . أجمع أهل العلم أن (النابغة) لم يقل هذا ولم يسمعه « عمر » ، ولكنهم غلطوا بغيره من شعر « النابغة » ، فإنه قد ذكر لى أن « عمر بن الخطاب » سأل عن بيت « النابغة » :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

وحرى أن يكون هذا البيت أو قوله :

فلست بمستبق أخا لا تلمه إلى شعث ، أى الرجال المهذب(١)

ويبدو أن الدكتور « طه حسين » ، وقد صدر عن هذا المنطلق حلاله أن يسبح مع تيارات المستشرقين الذين وقفوا يترصدون أمثال تلك الإشارات التى أوردها القدامى فجرفه تيار « مرجليوث » ، وهو تيار عات يموج بكثير من الشكوك . . . ولعل مما أثار ارتياب (مرجليوث) فى البيت « فألفيت الأمانة » الخ . . أن شعراء الجاهلية يشكون فى هذا البيت وما يجرى مجراه «عن معرفتهم بأمور يذكر القرآن » أنها لم تكن معروفة للجاهليين قبل نزول الوحى فى قوله تعالى : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا، فاصبر إن العاقبة للمتقين »، مما يدل على أن (محمدا) وقومه لم يسمعوا من قبل بقصة « نوح » ، ومع ذلك فقد كان (النابغة) يعرف هذه القصة ، مع أن القرآن الكريم فيما يرى (مرجليوث) هو المصدر الوحيد لهذه المعرفة الدينية »(٢) .

---

(١) طبقات فحول الشعراء ١/٥٦ وما بعدها .

(٢) الشعر الجاهلى قضاياه الفنية والموضوعية . . ١ (بتصرف) د . ابراهيم عبد الرحمن

ونظرة موضوعية إلى ما أثاره « مرجليوث » ، وإلى ما رددده الدكتور « طه حسين » الذى استوحى فكره تقطع بأن كليهما مسرف على نفسه فى تقويم هذه الحقيقة ، مبالغ فى الحكم عليها وتقديرها ، إذ القول بأن الشعر الجاهلى يرفض — بطبعه — احتواء ما ورد فيه من معان إسلامية ، وإشارات دينية لا يهدى منارة الحق ، فوق ما فيه من تجاف عن الواقع قول متسرع ، فمعلوم أن شعراء الجاهلية — وبخاصة فى الفترة التى سبقت الإسلام — اهتدوا بوميض النبوة فى وقت تهيأ فيه المناخ الذى تنفسوه لاستقبال طلائع الوحى ، وترقب الآمال الندية فى البعثة النبوية الهادية ، ومن ثم جاء شعرهم حافلا بكثير من الإشارات والمعانى الإسلامية . . .

والذى يعكف على استقصاء هذه الإشارات فى الشعر الجاهلى يكاد يلحظ خطا بارزا سار عليه شعرهم ، يتمثل حينا فى اتجاههم إلى التوحيد ، وحينا فى تلك الثنائية : التوحيد وعبادة الأصنام وهو ما يشكل فكرهم الدينى بصفة عامة ..

« وفيما يتصل بالشعر الذى ورد فيه ذكر « الله » فقد نسبه الرواة جميعا — فيما عدا أبياتا منسوبة لامرئ القيس — إلى شعراء كانوا يعيشون فى تلك الفترة القريبة من ظهور الإسلام ، ولهذه الحقيقة أهميتها العلمية ، إذ إنها تدل — بما لايدع مجالا للشك — على أن هذا الفكر الدينى الجديد ينتمى إلى تلك المرحلة التى حقق فيها الجاهليون تطورا دينيا اتجه بهم إلى التوحيد ، وربما استطعنا أن نتصور هذا الاتجاه التوحيدى فى عبادات « الجاهليين » قبل الإسلام مباشرة ، ذلك الاتجاه الذى كان ثمرة تطور حضارى عام ، أخذ ينتقل بهذه الجزيرة من طور إلى طور حضارى جديد ، من خلال تلك الصورة التى يرسمها القرآن الكريم لهم ولعباداتهم ، وهى صورة تعكس فكراً دينيا متطوراً يتألف من عنصرين : أولهما توحيدى كان الجاهليون يؤمنون فيه بإله واحد يرونه خالق الكون ، ورب السموات والأرض ، فيقول الله تعالى فى سورة « العنكبوت » :

« ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ؛ وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون » ويقول تعالى : « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله ، قل الحمد لله بل أكثرهم لايعقلون » والعنصر الثانى الذى يؤلف هذا الفكر وثنى ، هو عبادة الأصنام ، وهو ما يعكس هذه الثنائية الدينية فى أشعارهم المتمثلة فى إشارات مختلطة ، بعضها إلى « الله » خالق الكون ، والأخرى إلى أوثانهم التى يتعبدون لها ، وهذا الاختلاط أو تلك الثنائية ترجع إلى حقيقة أن الجاهليين كانوا يتخذون من عبادة هذه الأصنام طريقا إلى الله ، ومن ثم فقد تعددت هذه الأصنام بتعدد الصفات التى كانوا يرونها فى « الله »(١) .

وأجدنى مشدوداً فى ضوء هذا المنظور — والشىء بالشىء يذكر — إلى أن أذكر أن الأبيات التى رفض الدكتور (شوقى ضيف) نسبتها إلى « النابغة » مما أومأنا إليها سلفا :

حيـاك ربى فانا لايحل لنـا لهو النساء ، وإن الدين قد عزما

ليس فيها ما يقطع بنفى هذه النسبة ، بل قد يكون العكس هو ما تميل إليه ونرجحه فيما تستلزمه تلك النظرة التى ندين بها .

٢ — ومن حيث الدليل الذى قدمه الدكتور (شوقى ضيف) فى خلو قصيدة « المتجردة من المشابه التى تدنيها إلى شعر « النابغة » لما انطوت عليه من غزل ماجن فإنه — هو الآخر — يحتاج إلى تمحيص ، فليس لباحث أن يرفضه أو يقبله على عمومه ..

ذلك أن فيه تفسيرا لبعض الحقائق ، كاتصاف « النابغة » بالخلق الوقور ، والتسامى عن الهبوط والإسفاف فى شعره ، ولكن هذا لايتنافى مع ما يعيشه الشاعر من حالة ، تتفجر خلالها الطاقة الشعرية على صور

---

(١) ذاته ١٠٧ وما يليها .

متفاوتة ، فحيث استغرق فى تأملاته وانفعل بتجربته انطلق لسانه بما استلهمه من روائع ودرر ، وماذا يمنع أن يلم فى شعره بقصيدة من هذا القبيل ، تنأى عن القالب الشعرى الذى استأثر به الشاعر وصار سمة له ويبقى الحكم — مع هذا على الشاعر — منوطاً بما يتردد فى شعره من معنى طغى عليه ، وبرز فى شعره أو لم يتردد .

فامرؤ القيس — على سبيل المثال — غلبت عليه النزعة الماجنة فى غزله وانعكس ذلك على شعره بصورة أو أخرى فى غير معرض من معارض شعره ، فلا بد فى تقويم شعره من اعتبار هذه النزعة الغالبة ، أما أن يكون حظ « النابغة » من هذا المنحى قصيدة فى شعره تتجرد للغزل الوصفى ثم تتخذ دليلا على نبوها عن شعره فذلك ما يمكن أن يتردد فى قبوله البحث العلمى ..

وهل فى استطاعتنا أن ندفع قصيدة صوفية تفيض بمشاعر التجرد والاستغراق فى الذات الإلهية لشاعر كنزار قبانى ، وقف شعره على المرأة ا يتغنى بها ويعكف عليها ؟

إن الشاعر — أى شاعر — لا يعيش جوا واحداً من الذبذبات الانفعالية حتى يصب شعره فى قالب معين لا يعدوه أو يتجاوزه ، وذلك هو السر فى تفاوت القصائد باختلاف التجارب ، والانصهار فى بوتقتها ، وإذا أخذ فى الحسبان هذا المعنى ، ثم أضيف إليه أن (النعمان بن المنذر) — صاحب الأيادى الطولى على النابغة ، إذ هو الذى رغب إليه أن يصف المتجردة امرأته فى شعره — على ما يجمعهما من حب وود — كان انتماء هذه القصيدة إلى (النابغة) أمرا سائغاً لا غرابة فيه ؛ فمنزلة (النعمان) فى نفس (النابغة) جلية لا تخفى ، وماذا يعنى « النابغة » شاعر بلاط « النعمان » غير تلبية رغائبه فى نفثة شاعرة ، تحظى بالافتنان والعبقرية أملا فى نواله وجوده .

ولكننا لا نظفر بشيء من التصريح للدافع أو الدوافع وراء هذا كله، مما يدفع إلى اتخاذ هذا الجانب من الرأى فى أن حادثة « المتجردة » لم تكن شيئاً يسهل التصريح به فى شعره بعد أن تضخمت وكبرت . والشيء الطبيعى المعقول أن يظل الأمر سراً يدركه « النعمان » من خلال الشعر الموجه إليه ، ويفهمه باللمحة والإشارة والإيماء (١) .

ونأنس فى ذلك بما لحظه الدكتور « محمد الدش » الذى رأى أن حادثة « المتجردة » كانت أهم الأسباب وأولها فيما أصاب العلاقة بين « النعمان » و « النابغة » فى ذلك التاريخ المبكر لصداقتها ، وعلى الرغم من أن « النعمان » هو الذى طلب إليه أن يصف جمال المتجردة ، وأن الأمر كان فى ظروف غير طبيعية من السكر والانتشاء وفقدان العقل والاتزان مما يلتمس به العذر للنابغة فإن (المنخل) وربما غيره معه استغل هذه الحادثة استغلالا سيئاً بحيث استطاع أن يفسد العلاقة بينهما ، وأن يقطع الصداقة... ومما يقوى هذه الوجهة عنده فى أمر « المتجردة » ذلك الغموض الشديد الذى نراه فى طائفة من أشعار « النابغة » حين يعتذر إلى « النعمان » بحيث لا يكاد السبب الرابض وراء هذا الاعتذار يبين ، إذ نقرأ شعراً رائعاً وتصويرا جميلا ، ونحس بحرارة العاطفة وصدقها(٢) .

وقد يكون من النصفة للحق ، ولشعر النابغة — على سواء — ان ننحى عنه أبياتاً ذيلت بها قصيدة « المتجردة » ، منها :

« إذا لمست لمست أجشم جاثما ... إلخ

إذ لا يقع فى الوهم أن يشتط « النابغة » ، فيلمس شعره موضع العفة على نحو ما ورد فى قصيدته ، وفى هذا نتجاوب مع بعض الباحثين

---

(١) الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى ١٩٧ .

(٢) انظر مجلة (العربى) يوليه ١٩٦٩ ، وما بعدها .

الذين ارتضوا هذا الرأى الأوسط * ، فلم يرفضوا القصيدة كلية ، ولم يقبلوها عن آخرها كذلك ، ومثل هذا الملحظ يحقق الغاية من دراسة القصيدة فى نطاق الشعر الجاهلى ، ويحقق إلى ذلك لمسات ثابتة أجمع عليها النقاد ومؤرخو الأدب أو كادوا فيما عرف عن سلوك « النابغة » وحياته . . .

ويذكر الأستاذ « محمد هاشم عطية » — فى هذا الصدد — قائلا :

أما وصفه (يعنى النابغة) للمتجردة فيقول بعض الرواة : إن «النعمان» هو الذى أراده عليه ، وكان يظن أنه لا يبعد فيه ولا يبالغ ، ومن الحق أن تكون الأبيات التى فيها ذكر للعودة مدسوسة على (النابغة) وهى ليست فى ديوانه ، ويؤخذ ذلك من تصريحه فى بعض اعتذاراته فى مثل قوله :

« ما قلت من سىء مما أتيت به »

باعتبار أن هذا كان من أسباب غضبه عليه ، وكان (الأصمعى) لا يسندها ، ولكنه يحققها له (١) .

على أن من الخير والأولى فى منطق البحث العلمى أن تنسب القصيدة إلى الشعر الجاهلى ما وجدت سبيل إلى ذلك ، تحكمها الاعتبارات المنطقية والمعايير التاريخية ، فهذا أقمن من رفضها وإنكارها وفيها مسحة الشعر الجاهلى وخصائصه بل نبضه وروحه » .

٣ — وفيما يخص الدليل الثالث ، وهو الذى رجح الدكتور (شوقى ضيف) أن يكون سبباً فى حمل « النابغة » على مغادرة بلاط (النعمان ابن المنذر) متوجها إلى (الغساسنة) ليتشفع فى قومه الذين وقعوا فى

---

* من المفيد الرجوع إلى ماكتبه المرحوم الأستاذ (عمر الدسوقى) فى هذا الصدد من كتابه (النابغة الذبيانى) ١٦٢ وما يليها .

(١) الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى ١٩٧

قبضتهم غب معارك دارت بين المناذرة والغساسنة ، وشجب ما يقال من أن داعيه إلى ذلك قصيدة « المتجردة » فحجة نرى نفنيدها بإلقاء مزيد من الأضواء تجلى أبعادها . .

فمن الواضح أن للنابغة شعراً فى كل من (المناذرة) و (الغساسنة) ومن شعره الذى توجه به إلى (الحارث بن أبى شمر) يستدر حلمه فى أسارى (بنى اسد ، وبنى فزارة) :

لم يبق غير طريد غير منفلت ... وموثق فى حبال القد مسلوب
أو حرة كمهاة الرمل قد كبلت ... فوق المعاصم منها والعراقيب
تدعو قعينا وقد عض الحديد بها ... عض الثقاف على صم الأنابيب
مستشعرين قد الفوا فى ديارهم ... دعاء سوع ودعمى وأيوب(١)

ويمدح كذلك « النابغة » « غسان » حين ارتحل راجعاً من عندهم بقوله :

لا يبعد الله جيراناً تركتهم ... مثل المصابيح تجلو ليلة الظلم
لا يبرمون إذا ما الأفق جلله ... برد الشتاء من الأمحال كالأدم
هم الملوك وأبناء الملوك لهم ... فضل على الناس فى اللأواء والنعم
أحلام عاد وأجساد مطهرة ... من المعقة والآفات والإثم(٢)

وكما حفل ديوان (النابغة) بمدح « الغساسنة » ماجت قصائده بأماديح « المناذرة » على ما يبدو مثلا فى ديوانه . .

ويعنى ذلك أن اتصال « النابغة » بالغساسنة أمر لا يتطرق إليه شك ، وحقيقة ثابتة لا يمكن تجاهلها ، ووساطته لديهم رغبة فى المن على أسارى

---

(١) الديوان ٥٢
(٢) نفسه ١٠١

قومه موقف تاريخي مشهود ، فكيف إذن نعلل هذه المواقف والعداء بين المناذرة والغساسنة مما لايمكن تناسيه حينئذ !

نبادر إلى القول بأنه لايستبعد أن تكون الجفوة قد دبت بين « النعمان » « والنابغة » بسبب هذه القصيدة أولا ، ثم اتفق أن وقعت الحروب بين المناذرة والغساسنة ، ووقع قوم « النابغة » أسرى فى تلك الأثناء ، واهتبل « النابغة » هذه الفرصة السانحة فأفاض فى مدح « الغساسنة » ، كى يكون ذلك شفيعاً له فى الاستجابة لرغبته ، لاسيما واختلاق الباحثين فى أول اتصاله بالملوك — من جهة ، وخلط الرواة فى سبب القطيعة بين حادثة « المتجردة » وحادثة سيف « مرة القريعى » على ما ذكره (أبوالفرج الأصفهانى) من جهة أخرى * ، بالإضافة إلى ما وقع لابنته (عقرب) فى إحدى المعارك بين « ذبيان » و « الغساسنة » وموقف القائد الغسانى (النعمان بن وائل الجلاح) منها وقد منّ عليها بإطلاق سراحها ، بل وسراح كل السبايا لمكانتها ومكانة أبيها ، كل أولئك مما يكاد يرجح ما نقول .

وإذا أخذنا فى الاعتبارات هذه الفترة التاريخية التى كانت مسرحاً للوصل ، ثم للجفوة ، والرضا ، والغضب مما يستعصى على الباحث فيها ترتيب الأحداث التاريخية التى وقعت خلالها أدركت أنه يمكن انتماء القصيدة للشعر الجاهلى بدلا من رفضها كلية وإلا فلو صح أن يكون السبب سياسياً محضاً لبقى كثير من أبيات « النابغة » فى النعمان « يطوف به طائف من الشك ، تقف علامات الاستفهام دونه تبحث عن جواب سديد ، وتفسير مقبول ..

---

* راجع الأغانى ٩ / ١٦٥ وما بعدها .
راجع فى ذلك قصيدة (أهاجك من سعداك مغنى المعاهد بروضة نعمى فذات الأساود ١٣٧/١٤٠) الديوان .

ومن أبيات « النابغة » – فى هذا المضمار – : قوله :

ما قلت من سيء مما أتيت به إذاً ، فلا رفعت سوطى إلى يدى
إلا مقالة أقوام شقيت بها كانت مقالتهم قرعاً على الكبد

وقوله :

لاتقذفنى بركن لاكفاء له وإن تأثفك الأعداء بالرفد (١)

وماصرح به قائلا :

فإن كنت لاذوالضغن عنى مكذب ولاحلفى على البراءة نافع
ولا أنا مأمون بشىء أقوله وأنت بأمر لامحالة واقع
فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

فى قصيدته التى ركز فيها على هذه المعانى ، والتى ورد فيها :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع
مصطحبات من لصاف وثبرة يزرن إلالا سيرهن التدافع
لكلفتنى ذنب امرىء وتركته كذى العر يكوى غيره وهو راتع (٢)

فاعتذاريات (النابغة) لـ « النعمان » تقطر ندماً ، وتتفجر أسى على ما فرط منه فى حق « النعمان » من آثام ؛ يقوى فى ظننا أن تكون قصيدة « المتجردة » من ورائها لاسيما وبعض أبياتها ناطقة بما أثارته عنده :

« والنابغة » إذ يعود ليقدم إلى (النعمان) فروض الطاعة والولاء من جديد يهيب به أن يضرب صفحاً عن الدساسين المشائين الذين وقفوا جهودهم على تجسيم ما ارتكبه فى حق (النعمان) ، فعداوة هؤلاء للنابغة – كما يعزب عن النعمان – مكينة فى الأيام الخوالى ، نظراً لما كان

---

(١) ديوان «النابغة» ٢٥ ومابعدها .

(١) ذاته ٣٥ وما يليها .

يحظى به من قرب وود ، أفإذا زل منه اللسان فوصف المتجردة بما قاله عنها :

زعم الهمام - ولم أذقه - أنه عذب إذا ما قلته قلت ازدد

زعم الهمام - ولم أذقه - أنه يشفى بريا ريقها العطش الصدى

يتركونه دون أن يسعوا به !!!

هذه وجهة نظر نراها فى قصيدة « المتجردة » ، وعسى أن تكون قد أصابت من الحقيقة مقطعاً وبلغت منها مكاناً . . »

تأملات فى القصيدة

قصيدة « النابغة » فى وصف المتجردة — لوحة فنية رائعة ، أبدعتها بنات فكرة ، ووشتها أنامل الفن بأصباغ زادتها تألقاً وافتناناً ، فمدت تخلب اللب ، وتسترعى الانتباه .

ويعكس الإطار العام للقصيدة ما كان يسود الشعر الجاهلى من خصائص فنية ، تتجلى فى الغزل والتشبيب بالمرأة ، وهى خصائص نسجت على المنوال عينه .

ذلك أن من يتأمل الخطوط الفنية التى تمثل الغزل فى الشعر الجاهلى يستوقفه ما يلى :

(ا) ما سرى فيه من منزع يطرح الحياء ، ومن ثم لايتحرج الشاعر ولايتأثم فى المعايثة الفاضحة ، والغزل الماجن ، انسياقاً مع ما يجرى فى خواطره ، ويعتمل فى صدره .

وقد ضرب (امرؤ القيس) فى هذا المنزع شأوا بعيداً ، فجاءت قصائده الغزلية تتصدى للمغامرة الجريئة ، والمجاهرة بالغواية ، غير عابئة بما يصادم الفطر الإنسانية ، فحسبه أن عبر عن مشاعره ، وقدم صفحة عن ذاته ، لم يحاول تغليفها بمسوح الرهبنة أو يعمد إلى إلقاء الأستار عليها ، حتى تتوارى الحقيقة دونها أو تختفى . . .

ولسنا فى حاجة إلى أن ندعم ذلك ببعض نماذج من شعره ، فقصائده فى هذه السبيل أوضح من أن نشير إليها أو نعرف بها .

(ب) ما تخلله من منزع آخر ، تتمثل فيه عفة اللسان ، وسمو الخاطرة ...

وفى هذا المضمار يطالعنا غير شاعر ، إذا تحدث عن المرأة أطلت الفضيلة من حديثه ، وسرت فيه دعوة كريمة إلى الحفاظ على المرأة بعيدا عن كل ما يخدش كرامة الأنوثة فيها ، أو يجعلها عرضة للقيل والقال ، و « عنترة » — فى هذا المعنى — مثل تجسد فيه هذا الخلق ، فإذا بدت جارته أغضى عن التطلع إليها ، واقتحامها بنظرته ، وإذا ذكر صاحبته ساعة الهيجاء ، ذكره منها ما يثير حميتـــه : ويبعث فيه النخوة ، ويؤجج الحماس ..

يقول « عنترة » مفتخرا :

وأغض طرفى ما بدت لى جارتى ... حتى يوارى جارتى مأواها
إنى امرؤ سمح الخليقة ماجد ... لا أتبع النفس اللجوج هواها
ولئن سألت بذاك «عبلة» خبرت ... أن لا أريد من النساء سواها
وأجيبها إما دعت لعظيمة ... وأعينها ، وأكف عما ساها(١)

ويقول فى موطن آخر :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل ... منى ، وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنها ... لمعت ، كبارق ثغرك المتبسم(٢)

وقد تجد هذه النبرة أو ما جرى مجراها تسود شعر هذا العصر على امتداد زمنه ، وتعاقب مراحله ، وذلك « لبيد بن ربيعة العامرى » فى معرض من معارض شعره يصف صاحبته ، وكيف جرى الحوار بينهما قائلا :

وفى الحدوج عروب غير فاحشة ... ريا الروادف يعشى دونها البصر
كأن فاها إذا ما الليل ألبسها ... سيابة ما بها عيب ولا أثر
قالت غداة انتجينا عند جارتها ... أنت الذى كنت لولا الشيب والكبر

---

(١) راجع شرح ديوان (عنترة) ص ٢٤٦ .
(٢) نفسه ١٢٣

فقلت : ليس بياض الرأس من كبر ولو تعلمين ، وعند العالم الخبر
لو كان غيرى سليمى اليوم غيره وقع الحوادث إلا الصارم الذكر(١)

* * *

والناظر فى قصيدة « النابغة » : « المتجردة » يراها تتجرد للوصف المادى أو بالأحرى للغزل المادى الذى يقوم على تصوير امرأة النعمان فى أطر من بيئة احتضنت الشاعر ، وغذت خياله ، وأطبت وجدانه ، ومن أنماطها :

(ا) تصوير حبها الذى مس شغاف قلبه بالسهم المصرد .

(ب) وتصوير مقلتها بمقلة شادن أحوى إلى آخره .

(ج) ورؤيه السلك فى نحرها ذهبا يتألق كالشهاب ،

(د) وتمثلها غصنـــا يتأود وينثنى مرة ، وشمسا فى طلعتها مرة أخرى .

(هـ) وتشبيه بنانها بعنم يكاد من اللطافة يعقد .

(و) ورؤية شعرها الفاحم الأثيث كرماً يميل على دعائمه .

وهكذا تجىء قصيدته حافلة بألوان من الصور تقع عليها عدسة العربى اللاقطة فى حله وترحاله على سواء .

على أن التصوير الذى لف أبيات القصيدة قريب المنال ، لايحتاج إلى إعمال فكر أو قريحة ، ولعل ذلك يعزى إلى تلك الصور الحسية التى انتزعها الشاعر من عالم الوجود ، ودنيا الواقع ... على الرغم من تلوين التصوير ، وساوكه مسالك متعددة ، ومن ذلك ما وقع فى أبياته من تشبيه الشىء بالشىء صورة كما فى قوله :

وبفاحم رجل أثيث نبته كالكرم مال على الدعام المسند

---

(١) شرح ديوان « لبيد بن ربيعة » ٤٦

وما جاء منه من تشبيه الشيء بالشيء لونا وصورة ، كقوله :

تجلو بقادمتى حمامة أيكة ... ردا أسف لثاته بالإثمد
كالأقحوان غداة غب سمائه ... جفت أعاليه وأسفله ندى

إذ « شبه الثغر بالأقحوان لونا وصورة ، لأن ورق الأقحوان صورته كصورة « الثغر » سواء ، وإذا كان الثغر نقيا كان فى لونه سواء (١) .

والنابغة — إن فى تصويره أو غزله — مشدود إلى العصر الجاهلى ، ينضوى تحت رايته ، إذ جرى على مذهب شعرائه ممن تناولوا المرأة ، فلم يكادوا يتركون شيئا فيها دون وصف ، وتأمل هذه الأبيات التى نضعها بين يديك ، لترى إلى أى حد يمكن أن يكون (النابغة) حلقة فى سلسلة العصر .. والأبيات من شعر « الشنفرى الأزدى » يقول فيها :

فيا جارتى وأنت غير مليمة ... إذا ذكرت ، ولا بذات تقلت
لقد أعجبتنى لا سقوطا قناعها ... إذا ما مشت ، ولا بذات تلفت
كأن لها فى الأرض نسيا تقصه ... على أمها ، وإن تكلمك تبلت
أميمة لا يخزى نثاها حليلها ... إذا ذكر النسوان عفت وجلت

إلى أن يذكر :

فدقت وجلت واسبكرت وأكملت ... فلو جن إنسان من الحسن جنت (٢)

ويذكر الدكتور « شوقى ضيف » أن شعراء الجاهلية « قد يصورون فى تعلقهم بالمرأة ضربا من المتاع الحسى ، على نحو ما يصور ذلك « طرفة » فى معلقته ، وكذلك « امرؤ القيس » ، ومرد ذلك إلى ضرب شاع عندهم من الفتوة ، فهم يمتدحون بأنهم ينالون من المرأة ما يريدون ، وكانوا وثنيين ، ولم يكن هناك دين يردعهم ، على أن منهم من كان يتسامى فى غزله حتى ليمكن القول بأن الغزل له أصول فى الجاهلية عند (عنترة) وأضرابه (٣)

---

(١) كتاب الصناعتين ٢٥٣ .
(٢) المفضليات ١٠٩
(٣) تاريخ الأدب العربى — العصر الجاهلى ٢١٤

والقصيدة بعد هذا كله نبضة شعرية من نبضات النابغة صبها فى نبرة موسيقية خالبة ، تنهض بها تفعيلات بحر « الكامل »

متفاعلن متفاعلن متفاعلن ، وما يتولد عنها ، وهو من البحور العروضية التى تحتل المرتبة الثانية فى نسبة الشيوع فى الأشعار العربية ، فإذا أضيف إلى ذلك ، رويها الذى يتضافر معها ، ويتظاهر على ذيوع هذا الرنين أدركت إلى أى مدى أصاب (النابغة) حظا من روعة الفن حين قدم القصيدة للنعمان بن المنذر وقد أراده عليها — كما أومأنا إلى ذلك .

وشعر « النابغة » فى « النعمان » وإليه مما يشكل معلماً بارزاً فى ديوانه ، فقد اختصه فى غير قصيدة بفيض من أماديحه ، واعتذارياته وأجاد فيهما إجادة بارعة .

وربما كانت أماديح « النابغة » فى النعمان بن المنذر — لدى بعض الباحثين — موضع نظر ، حيث لم تلق استجابة عندهم ، فراحوا يأخذون عليه هذا المسلك ، ويعيبون امتهانه لرسالة الشعر والشعراء ، وكأنما نظروا إلى « النابغة » وهو يرسل أناته الحائرة ، واعتذارياته الضارعة إلى النعمان من مثل قوله :

فلا تتركنى بالوعيد كأننى ... إلى الناس مطلى به القار الأجرب
ألم تر أن الله أعطاك سورة ... ترى كل ملك دونها يتذبذب
بأنك شمس والملوك كواكب ... إذا طلعت لم يبد منهن كوكب
فإن أك مظلوما فعبد ظلمته ... وإن تك ذاعتبى فمثلك يعتب

وقوله :

أتانى أبيت اللعن أنك لمتنى ... وتلك التى أهتم منها وأنصب

فبت كأن العائدات فرشنى ... هراسا ، به يعلى فراشى ويقشب
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بلغت عنى خيانة ... لمبلغك الواشى أغش وأكذب(١)

وغير ذلك كثير وكثير فيما رواه (الأصمعى) وغيره من الرواة .

والواقع أن هذه دعوى باطلة ، واتهام مسرف يمكن تفنيده فيما يأتى :

(أ) أن ديوان (النابغة) يزخر بقصائد عديدة ؛ انتظمت أغراضا شتى من المديح الذى خص به (المناذرة) ، كما اختص ببعضه الآخر الغساسنة ، فلم يكن شعر (النابغة) إذاً وقفاً على (النعمان) وحده ، كما يذهب إلى ذلك بعض الباحثين .

صحيح أنه عاش فى بلاط « النعمان بن المنذر » — كما ألمحنا إلى ذلك فيما مضى — بيد أنه لم يعقل لسانه ، فنقتصر أمادحه على « النعمان » بدليل ما أوردنا ثمة من قصائد وجهها إلى بعض الغساسنة .

(ب) وليس يتصور من شاعر مادح — بحال — أن يجرؤ على مواجهة ممدوحه على فرض التسليم لهم بما يقولون جدلا — بما قاله له فيما جاء فى نسخة « الأعلم » مما لم يروه « الأصمعى » :

تخب إلى « النعمان » حتى تناله ... فدى لك من رب طريفى وتالدى
فسكنت نفسى بعدما طار روحها ... وألبستنى نعمى ولست بشاهد
وكنت امرأ لاأمدح الدهر سوقة ... فلست على خير أتاك بحاسد (٢)

---

(١) الديوان ٧٢ وما بعدها .

(٢) نفسه ١٤٠ .

وإذا كانوا قد أخذوا عليه هذه الأبيات ، حيث اعتبر «ابن قتيبة» أنه امتن «عليه بمدحه، وجعله خيرا سبق إليه ، لايحسده عليه» (١) فإن هذا المأخذ الذى نص «ابن قتيبة» عليه ينهض شاهدا على ما نرتضيه حول هذا المعنى ، ولقد جلى أبعاد هذه القضية «قدامة بن جعفر ت٤٣٧ هـ» حين قرر قائلا : «وقدينبغى أن يعلم أن مدائح الرجال تنقسم أقساما بحسب الممنوحين من أصناف الناس فى الارتفاع والاتضاع وضروب الصناعات والتبدى والتحضر ، وأنه يحتاج إلى الوقوف على المعين لمدح كل قسم من هذه الأقسام

فأما إصابة الوجه فى مدح الملوك فمثل قول «النابغة الذبيانى» فى «النعمان» بن المنذر :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب
بأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب(٢)

ويفهم من ذلك أن الخروج فى مدح الملوك على هذا الإطار، والابتعاد عنه معيب مذموم على ماقرره «ابن قتيبة» ،ولكنه فى الوقت ذاته يمكن ان يكون رداً على من سفه شعر «النابغة» بأماديحه، ووصمه بالقصور لذلك.

(ج) ثم أليست التجربة الشعرية التى يعيشها الشاعر هى التى تفتق ذهنه ، وتطلق لسانه من عقاله ، وماذا فى أن يجهد «النابغة» — وهو الذى واجه «النعمان» ...«فلست على خير أتاك بحاسد» — فتأتى قصائده فيه معرضاً للحسن وآية العبقرية والجودة ؟

وهل التجربة إلا فكرة انطبعت على ذهن الشاعر ، ومازال بها حتى أضفى عليها القالب الشعرى ، فإذا ذكر محبوبته وقف يسائل الأطلال ويناجى الذكريات ، وإذا رأى أن ناقته تلازمه فى غدواته وروحاته ملازمة

---

(١) الشعر والشعراء ١/١٦٩ .

(٢) نقد الشعراء ١٠٦ تحقيق د. محمد عبدالمنعم خفاجة .

الظل لصاحبه انعكس ذلك على شعره وإذا اهتز لموت صديق أو رحيل فقد ذابت نفسه حسرة ، وتساقطت هلعاً فى مرثية تصور موقفه وأساه ....

ولو فرضنا أن أمثال « النابغة » يصدرون فيما قالوا عن طمع فجر شاعريتهم ، فكيف نراهم فى مراثيهم إزاء الموتى وقد عبروا إلى الشاطىء الآخر ؟ .

لقد رثى « النابغة » النعمان بن الحارث بن أبى شمر الغسانى » — فى رواية « الأصمعى » التى اعتمدناها بقصيدة مطلعها :

دعاك الهوى واستجهلتك المنازل
وكيف تصابى المرء والشيب شامل(١)

كما أنشد فى الهجاء :

نبئت زرعة والسفاهة كاسمها يهدى إلى غرائب الأشعار(٢)

كذلك رويت له قصائد فى أغراض أخرى سواء فيما روى « الأصمعى » أو غيره ، فهل هذه إلا دقق النبعة الشعرية لمست وترا من نفسه فتجاوب معها ، وعبر عنها ؟

(د) وفى ضوء هذه النظرة يمكن القول بأن (النابغة) طرق شعره جميع الأبواب والأغراض ، وليس الأمر كما يقول بعض النقاد ومن شايعهم أنه وقف نفسه على الأماديح ، وانقطع للنعمان يستعطفه ويترضاه ، وربما التبس على هؤلاء بروز المدح والاعتذار وطغيانهما على بقية شعره من جهة ، وافتنانه فى ذينك الغرضين من جهة أخرى .

ولو أن هؤلاء تعمقوا هذين البعدين لوقفوا على الحقيقة كاملة :

---

(١) الديوان ١١٥ .
(٢) نفسه ٥٤

فأما بالنسبة للمعنى الأول فمعروف أن (النابغة) عاش فى بلاط « المناذرة » حيث كانت إمارتهم التى قامت على أطراف الجزيرة ، وليس من شك فى أن تلك الإمارة تأثرت سياسياً واجتماعياً بما وفد إليها من تيارات شهدتها بلاد « فارس » ، وكان طبيعيا أن يتكيف النابغة مع الحياة الجديدة التى ابتعدت به عن الحياة فى « بنى ذبيان » قبيلته ، وماذا ينتظر من شاعر فى مثل هذه الحال غير أن يلهج بالثناء ، ويختص بالإطراء أميراً دخل فى حاشيته ، وأصبح داعية بلاطه ؟ فأية غرابة — إذن — فى أن يحفل ديوانه بقصائد فيه ؟

وأما افتنانه فى المديح والاعتذار وبراعته فيهما بشكل ملحوظ تتضاءل دونه بقية الأغراض الأخرى فذلك أمر طبيعى ، فقد كان « النابغة » — « يعرف كيف دون معانيه ، وكيف يسلك إليها شعابا لم يسلكها أحد من قبله ، والذى لا ريب فيه أن باب الاعتذار والاستعطاف ضيق ، ولكنه عرف بمقدرته الخيالية كيف ينفذ منه إلى صور طريفة ، ومعان دقيقة ، يقوده فى ذلك ذوقه الحضرى الذى نصب أمام عينه اتصاله بالغساسنة ذنباً كبيراً ، وجرماً لا يغتفر فى حق (النعمان بن المنذر) ، وقد أخذ يتنصل من هذا الجرم تارة ؛ ويعظم فضيلة العفو عن الذنب مرة ثانية ، وبذلك كان فاتحا لباب الاعتذار على مصراعيه ، وعلى هديه تبعه الشعراء فى العصور الإسلامية متخذين منه قدوتهم »(١) .

(هـ) ولعل تقرير ذلك مما خالج أفكار النقاد القدامى ممن راح يثبت للنابغة تفوقا أو شعرية على من عداه ، وصحت عنهم المقولة الشائعة أشعر الناس : « امرؤ القيس » إذا ركب ، والنابغة إذا رهب ، تأكيداً منهم بتفوق « النابغة » فى اعتذارياته .

ومع ما تمثله هذه الحقيقة من واقع بالنسبة لشعر النابغة حرى بنا

---

(١) تاريخ الأدب العربى — العصر الجاهلى ٢٩٢ .

ألا نسبح فى تيارها بل ينبغى أن نمسح الشعر العربى الجاهلى ، وألا نسلم مقادتنا إلى تلك المقاييس فى تقويم شعرنا لا انتقاصاً من مكانة « النابغة » ولا إزراء بشعره بل رداً على هؤلاء الذين عن لهم بين الوقت والآخر أن يمسخوا تراثنا بسبب هذه القصائد المادحة والاعتذاريات المجودة ، ظنا منهم أن تراثنا قائم على هذه القصيدة المعتذرة ومثيلاتها فى « النعمان » ، ولن يتسنى لنا ذلك إلا إذا أعدنا النظرة من جديد فى تقويم هذا التراث .

وإذا كنا نختلف مع الدكتورة « بنت الشاطئ » فيما ساقته حول «النابغة» فى كتابها(١) « قيم جديدة للأدب العربى القديم والمعاصر » فإننا نتفق معها فيما دعت إليه ونادت به من ضرورة العكوف « على تراث شعراء القبائل الصعاليك نلتمس منه ما يجلو « الذاتية الجماعية » ويريحنا من الخصومة النقدية الحادة التى مللنا سماعها بين ما يسمونه « الفن للفن » أو « الفن للمجتمع » كأنما كانت فنية الفن تمنع جماعيته ، وجماعيته تهدر ذاته(٢) .

وفى النهاية لا بد أن نعرض لقصيدة « النابغة » فى « المتجردة » من حيث الرؤية الفنية .

وإخال أننا قدمنا فى الصفحات السابقة بعض لفتات فنية ، من مثل قول « النابغة » فى غير هذه القصيدة :

فإنك شمس والملوك كواكب ... إلخ

ويعنى ذلك أن للنقاد القدامى تناولا ووجهة نظ فى شعر « النابغة » .

ومما رأوه فى قصيدته المتجردة :

(أ) أنه سبق إلى معنى يستجاد فى صفة المرأة ، يذكره فى بيته :

نظرت إليك بحاجة لم تقضها   نظر السقيم إلى وجوه ال

---

(١) انظر : قيم جديدة ٤٧ وما بعدها .

(٢) ذاته ٦٠ .

يقول : نظرت إليك ، ولم تقدر أن تكلمك ، كما ينظر المريض إلى وجوه عواده ؛ ولا يقدر أن يكلمهم(١) .

فقد تنازع الشعراء بعد هذا المعنى ، وأحسن فيه (أبو نواس) إذ يقول :

ضعيفة كر الطرف تحسب أنها قريبة عهد بالإفاقة من سقم

(ب) ومما سبق إليه فأخذ منه قوله :

لو أنها عرضت لأشمط راهب عبد الإله صرورة متعبد
لرنا لرؤيتها وحسن حديثها ولخاله رشدا وإن لم يرشد

فقد أخذ البيتين بأكثر ألفاظهما بعض شعراء « ضبة » ، وهو (ربيعة بن مقروم) فقال :

لو أنها عرضت لأشمط راهب في رأس مشرفة الذرى يتبتل
لرنا لبهجتها وحسن حديثها ولهم من ناموسه يتنزل(٢)

(ج) ومما يتمثل به من شعره في غير تلك القصيدة :

ومن عصاك فعاقبه معاقبة تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمد(٣)

(د) ومن أحسن ما قيل في العفة قوله :

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب(٤)

وعلى نقيض ذلك جاءت بعض أبيات قصيدته متهافتة أمام النظرة النقدية الفاحصة ، ومن ذلك ما روى من أن (صالح بن حسان) قال لجلسائه : أعلمتم أن (النابغة) كان مخنثاً ؟ قالوا : وكيف علمت ذلك ؟ قال بقوله :

---

(١) الشعر والشعراء ١/١٧٢ .
(٢) نفسه ١٦٢ .
(٣) نفس المرجع والصفحة .
(٤) نفسه ١٦٣ .

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

لا والله ما عرف تلك الإشارة إلا مخنث(١) .

وقد تضمنت قصيدته فى « المتجردة » بعض المآخذ العروضية ، أو إن شئت بعض العيوب الموسيقية ، ومن ذلك الإقواء فى هذين البيتين :

أمن آل مية رائح أو مغتد عجلان ذا زاد وغير امزود
زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك خبرنا الغداف الأسود

ومن ذلك أيضاً قوله فى نفس القصيدة :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليـــد
بمخضب رخص كأن بنانه عنم يكاد من اللطافة يعقد

والإقواء : اختلاف المجرى ، والمجرى حركة حرف الروى الذى تبنى عليه القصيدة ، وهو وقع بيت وجر آخر ، ومثله أيضا ما وقع فى شعر « حسان » من قوله :

لا بأس بالقوم من طول وسن عظم جسم البغال وأحلام العصافير
كأنهم قصب جوف أسافله مثقب نفخت فيه الأعاصير

ولا يكون النصب مع الجر ، ولا مع الرفع ، وإنما يجتمع الرفع والجر لقرب كل واحد منهما من صاحبه ، ولأن الواو تدغم فى الياء وسمى إقواء لأن العرب تقول : أقوى الفاتل إذا جاءت قوة من الحبل تخالف سائر القوى(٢) .

ولسنا بذلك نتصدى لتقويم شعر « النابغة » ، وإنما هى نظرات سانحات فى قصيدته نستطيع أن نعبر بها إلى الحكم العام على شعره .

---

(١) ذاته ١٧٠ .
(٢) الموشح للمرزبانى ١٧ وما بعدها .

وحسبه مكانة ومنزلة ما روى عن (أبى عبيدة) حيث قال :

من فضل « النابغة » على جميع الشعراء ، هو أوضحهم كلاما وأقلهم سقطا وحشوا وأجودهم مقاطع ، وأحسنهم مطالع ، وأشعرهم ديباجة ، إن شئت قلت : ليس بشعر مؤلف من تأنثه ولينه ، وإن شئت قلت : صخرة لو رديت بها الجبال لأزالتها ، وقال : وسمعت (أبا عمرو ابن العلاء) يقول : كان « الأخطل يشبه بالنابغة »(١) .

ونستدل الستار بما يقوله فيلسوف المعرة (أبو العلاء المعرى) وقد لمس هذا الموضوع فذكر فى حوار طويل نقتطف منه ما يأتى :

قال : يا أبا أمامة : إنك لحصيف الرأى لبيب ، فكيف حسن لك أن تقول للنعمان بن المنذر :

زعم الهمام بأن فاهــا بارد　　عذب إذا مـا ذقته قلت ازدد
زعم الهمام ولم أذقه بأنــــه　　يشفى ببرد لثاتها العطش الصدى

ثم استمر بك القول حتى أنكره عليك خاصة وعامة ؟

فيقول « النابغة » بذكاء وفهم :

لقد ظلمنى من عاب على ، ولو أنصف لعلم أننى احترزت أشد احتراز ، وذلك أن (النعمان) كان مستهترا بتلك المرأة . فأمرنى أن أذكرها فى شعرى ، فأدرت ذلك فى خلدى فقلت : إن وصفتها وصفا مطلقا ، وخشيت أن أذكر اسمها فى النظم فلا يكون ذلك موافقا للملك ، لأن الملوك يأنفون من تسمية نسائهم ، فرأيت أن أسند الصفة إليه فأقول : زعم الهمام — إذ كنت لو تركت ذكره لظن السامع أن

---

(١) الشعر والشعراء ١٦٨/١ .

صفتى على المشاهد والأبيات التى جاءت بعد داخلة فى وصف الهمام ، فمن تأمل المعنى وجده غير مختل »(١) .

لا نود أن نسترسل أو نفيض ، فنذكر مع هذا أن نابغة بنى ذبيان كان الصيرفى الناقد ، والحكم البصير فى المطارحات الشعرية ففيما قدمناه غناء ، وقصة الاحتكام إليه فى الشعر معروفة فى مظانها ومصادرها ، فعلى الشداة أن يرجعوا إليها ليعرفوا المكانة الباذخة التى تسنم ذروتها « النابغة » بما ملك من أدوات فنية ، وطاقات إبداعية .

• • •

(١) راجع الديوان ٨٩ تحقيق الأستاذ (فوزى عطوى)